فلسفة التربية
عند أبي العلاء المعري
كما تظهر في ديوان اللزوميات

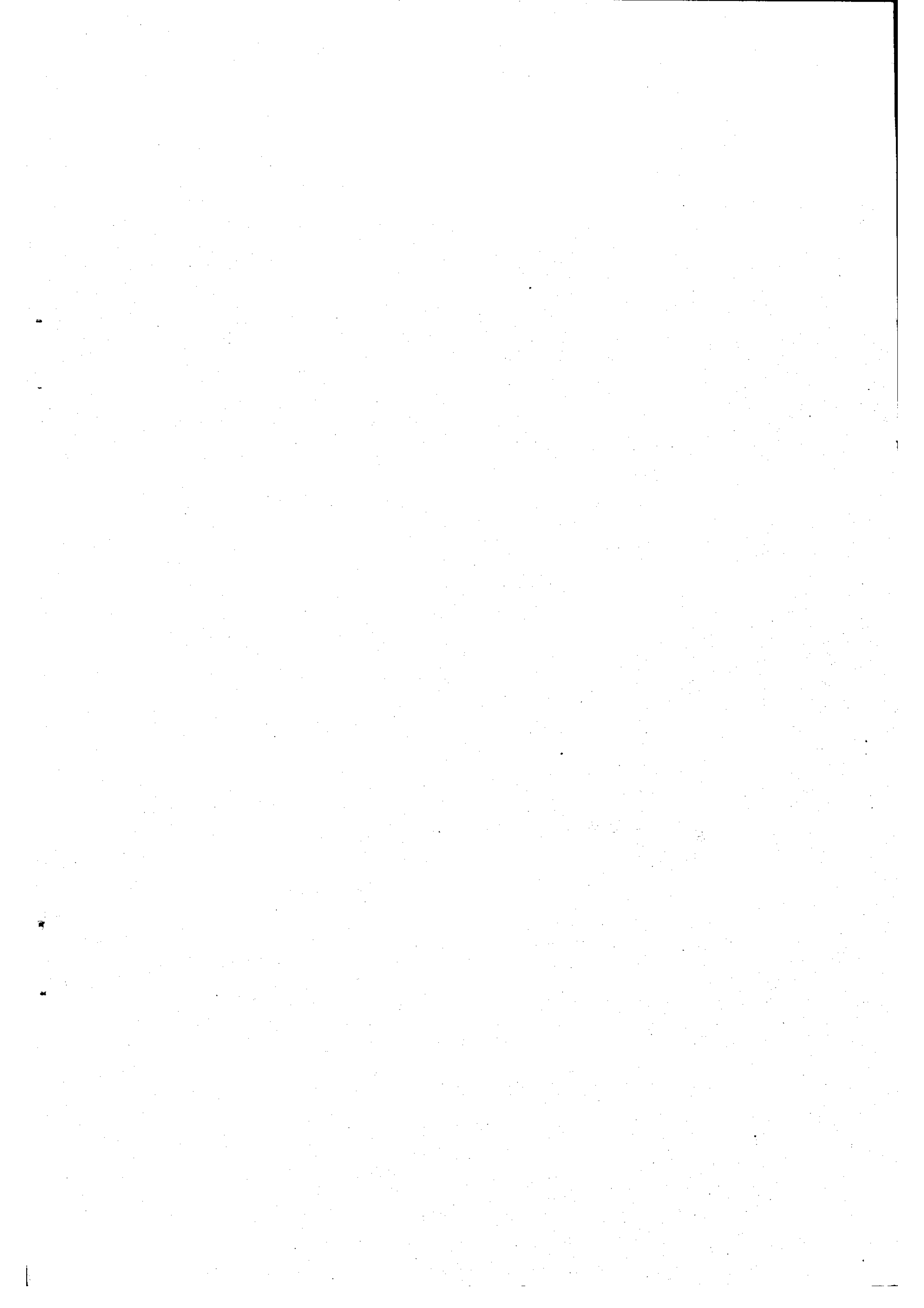
دكتور / مصطفى رجب
كلية التربية - سوهاج

١٩٨٦ م

قدم ملخص هذا البحث الى المؤتمر العلمي الثالث بكلية التربية بدمياط ـ جامعة المنصورة في مارس ١٩٨٧ ونشر موجز له في المخطط الفكرى الذى صدر عن الكلية بعد المؤتمر . كما أشير اليه في عرض منشور بالمجلة العربية للعلوم الانسانية (جامعة الكويت) العدد ٢٧ المجلد ٧ صيف ١٩٨٧ (ص ٢٥٢) .

ولو أني حبيت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

" أبو العلاء المعري "



تقديم

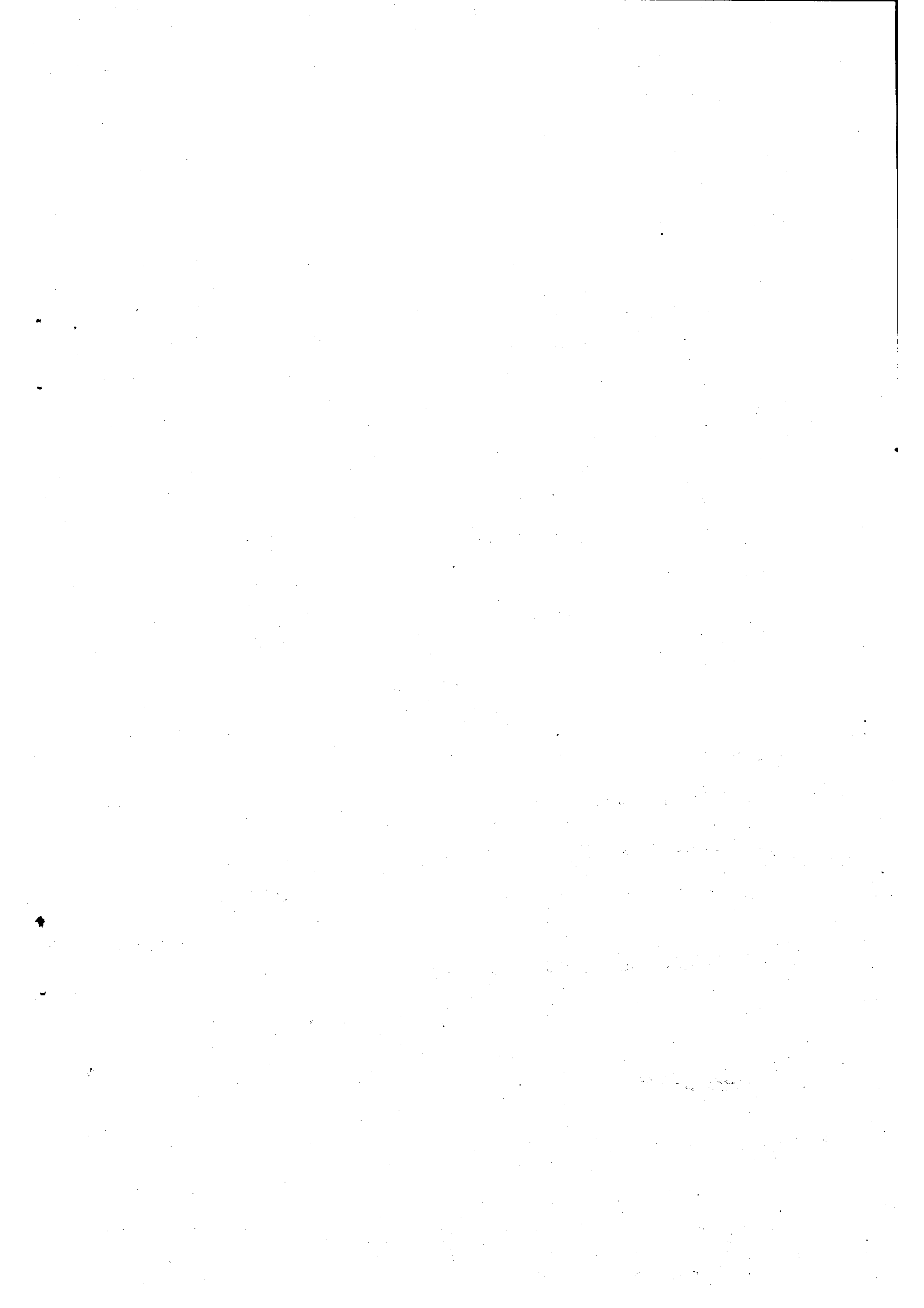
يكاد دارسو الأدب ومؤرخوه ونقاده يتفقون على أن أبا العلاء المعري ، وأبا الطيب المتنبي ، أعظم شاعرين في تاريخ العربية • غير أن أبا الطيب المتنبي كان فنانا ، قلقا ، طموحا ، متقلب الأهواء • على حين كان أبو العلاء رجلا كفيفا ، زاهدا ، معتزلا للناس • فلقب بفيسوف الشعراء ، وشاعر الفلاسفة " كما تقول الكتب •

ويعتقد الكاتب أننا في هذه المرحلة من تاريخنا ، أحوج ما نكون الى اعادة النظر في تراثنا العربي بهدف تنقيته ، وتقدير ما فيه من عطاء ، ازاء هذا الاكتساح الهائج للثقافات الغربية التي تعبر الينا البحر والجو مع الطعام والكساء كل يوم •

ومجال التربية ، والفكر التربوي وفلسفة التربية بنوع خاص ، من المجالات التي مازلنا نقتات فيها على موائد الغرب منذ نشأة البحث التربوي في مصر أواسط هذا القرن فيما عدا بعض الجهود المحمودة التي اتجهت الى دراسة الفكر العربي الاسلامي •

وهذه المحاولة ان أخطأتها أسباب النجاح ، فلن تفوتها لذة المغامرة ، ولله الحمد أولا وآخرا • !

شطورة في يناير ١٩٨٧م　　　　　　　　مصطفى رجب



المحتـــوى

XHHXHXHXHXHXHHX

مقدمـــة :

مازال البحث التربوى فى مصر ، وفى الدول العربية بعامـــة، مدينا فى نموه للبحث التربوى الغربى ، وماتزال الجهود الموجهــة لدراسة التراث التربوى العربى محدودة ، فى الوقت الذى تتسابق فيه الأمم الى تأكيد ذاتيتها الحضارية ، والتشبث بأصولها الثقافية .

وقد كان للبعوث العملية التى شهدت مولد البحث التربوى فـى مصر تأثراتها الأيديولوجية بمنهج البحث الغربى ، وذلك بحكم التبعية الثقافية التى هيمنت على الفكر العربى طوال الحقب الاستعمارية فـى العصور الحديثة .

ويمكن أن نميز بوضوح فريقين متعارضين من الباحثين التربويين المعاصرين ، فريقا يذهب الى أن البحث التربوى الصحيح هو ما انتهج المناهج الاحصائية ، وتناول قضايا محددة من نظمنا التعليمية ، فدرسها درسا كميّا ، وتوصل من درسه ذاك الى نتائج موضوعية تقترب بالعلوم الاجتماعية من العلوم الطبيعية . ولهذا الفريق أنصاره الذين ينفـرون من البحوث الفلسفية والتاريخية والاجتماعية ـ التحليلية نفورا ملحوظا ويرون فيها شرا كثيرا ، واثما عظيما .

وفريقا آخر ، يرى فى الاحصاء بدعة مستحدثة ، ويرى فى البحث التربوى ـ بمناهج الغرب ومناظيره الثقافية ـ شرّا كبيرا ، ويسرف على نفسه فى الاستمساك بالتراث العربى ، والاسلامى بخاصة ، ويرى فيــه

الخير كل الخير .

وليس بد من أن يوجد فريق من الباحثين التربويين يتخذون لأنفسهم منهجا وسطا ، وطريقا مقاربا بين الفريقين المتعارضين .

وفى الحقيقة ، فان هناك ملامح بادية فى الأفق لمثل هذا الفريق الذى يريد أن يتوسط الطريقين البعيدين . فيقرب بينهما ، ويحاول جاهداً أن يخلع أردية التعصب القومى ، بنفس القوة التى يحاول بها أن يرد عن نفسه سهام الغزو الفكرى ، والتبعية التى يحاول بها أن يرد عن نفسه سهام الغزو الفكرى ، والتبعية الثقافية .

وقد تكون هذه المحاولة لدراسة فلسفة أبى العلاء المعرى التربوية ، خطوة فى هذا الطريق ، وهى على أية حال خطوة . وان كلتواضعة ، ومحاولة . وان كانت الى الاخفاق أقرب منها الى النجاح . فربما اغناها شرف القصد عن ضعف القدرة .

مشكلة البحث وأسباب اختيارها :

تتميز الدراسات فى تاريخ التربية الاسلامية وفلسفتها بأنها سارت فى طريقين لا ثالث لهما .

الأول ـ دراسة موضوعات التربية الاسلامية والعربية فىمحورين متكاملين هما :

أ ـ المحور التاريخى (دراسة التربية فى العصر

العباسى أو الأموى ٠٠ الخ) ٠

ب ـ المحور الموضوعى (دراسة أهداف التربية فى القرآن ٠٠٠ وماشابه ذلك ٠

وقد أغفلت الجهود المبذولة فى البحث التربوى الشعر العربى كمصدر لتاريخ التربية العربية الاسلامية ٠ وقد يرجع ذلك لأسباب عديدة منها :

١ ـ أن التكوين الثقافى لمعظم الباحثين التربويين يستند الى خلفيات عملية (رياضيات ـ فيزياء ـ كيمياء ٠٠ الخ) أكثر من الخلفيات الأدبية (الفلسفة ـ اللغات ـ التاريخ ٠٠ الخ) وقد تأخر افتتاح شعب لدراسة اللغة العربية بكليات التربية حتى عام ١٩٧٤ منذ افتتاح تلك الكليات وقد أسهم ذلك ـ ولو جزئيا ـ فى تأخر افتحام تاريخ التربية العربية والاسلامية أمام الباحثين باستثناء جهود محدودة لفئة من الرواد الدرعميين الذين لم يولوا هذا المجال عناية كافية ٠

٢ ـ ارتباط البحث التربوى بصناعة القرار التربوى أدى فى كثير من الأحيان الى تدهور القيمة العلمية للبحوث التاريخية والفلسفية مقابل الاهتمام المتزايد بالبحوث الميدانية الاحصائية على الرغم من أن هذه النقطة تعكس تخلفا فكريا وثقافيا ٠

٣ ـ سيادة نظرة متطرفة تذهب الى أن الشعر يرتبط بالخيال والتربية علم عملى ، وينسى معتنقو هذه النظرة أن الخيال كان وراء كثير من الاختراعات العلمية فى العلوم الطبيعية، فقد تنبأ الروائى الانجليزى هـ٠ ج٠ ويلز فى رواية صدرت له فى أوائل هذا القرن بغزو القمر ، ونزول الانسان على سطحه وتمكن العلم من تحقيق هذا الحلم عام ١٩٦٩ عندما هبطت مركبة الفضاء الأمريكية حاملة نيل أرمسترونج أول انسان مشى على سطح القمر ٠ وبغض النظر عن هذه النقطة ، فان هناك اشعارا كثيرة تصدر عن العقل وتتضمن أفكارا انسانية غاية فى الأهمية ٠ ذلك أن الانسان بجوهره الذى هو غاية التربية ، ووسيلتها ، هو نفسه مبدع الفنون جميعا ، ومنها الشعر ، ومتلقيها ٠

تحديد مشكلة البحث :

يمكن تحديد مشكلة هذا البحث فى الاجابة على السؤال التالى :

ـ ما معالم الفلسفة التربوية لأبى العلاء المعرى كما تبدو فى ديوانه " لزوم ما لا يلزم " المعروف باللزوميات ؟

ويمكن أن تتفرع عن هذا السؤال الأسئلة التالية :

١ ـ ما موقف أبى العلاء الفلسفى من الوجود ؟

٢ ـ ما رأى أبى العلاء فى المعرفة ؟

٣ ـ كيف نظر أبو العلاء الى الطبيعة الانسانية ؟

٤ ـ ما أهم القيم التى تضمنها ديوان اللزوميات ؟

٥ ـ الى أى حد يمكن الافادة من فلسفة أبى العلاء التربوية ؟

منهج البحث :

ان طبيعة البحث الحالى تحتم على الباحث الاستعانة باكثر من منهج سعيا للتوصل الى نتائج تحقق الهدف من البحث ٠ ولما كانت السجلات المكتوبة ، والوثائق التاريخية من المصادر الأولية التى يعتمد عليها منهج البحث التاريخى ، وهى تشمل " ٠٠ الكتب والكتابات التى تركها الأشخاص المراد دراسة تاريخهم أو دراسة أفكارهم أو أسلوبهم" (١) . فان من الطبيعى أن يكون منهج البحث التاريخى هو أقرب المناهج الى تحقيق أهداف البحث الحالى ٠

فالباحث يستطيع استخدام منهج البحث التاريخى فى مجالات الخبرة الانسانية المختلفة ، ومنها الأدب ، حتى اذا لم يشتغل بدراسة تاريخية بحتة (٢) .

---

١ ـ عمر محمد التومى الشيبانى ، مناهج البحث الاجتماعى (بيروت : دار الثقافة ١٩٧١ ، ص ٩٧ ٠

٢ ـ ديوبولد ب ٠ فان دالين ، مناهج البحث فى التربية وعلم النفس ، ترجمة محمد نبيل نوفل واخرين (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٩) ص ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ٠

وقد أورد علماء مناهج البحث نماذج لأسئلة تثار في مجال نقد وتحليل النصوص التاريخية ، ونقد المادة التاريخية وتحليلها خطوة اساسية من خطوات منهج البحث التاريخي ، مثل : (١)

- ما المعنى الذى يعطيه ظاهر النص ؟
- ما المعنى الحقيقى للنص ؟
- هل هناك اختلاف بين المعنى الحرفى الظاهرى للنص والمعنى الحقيقى له ؟
- هل قصد المؤلف ان يأتى بعبارات عامة عائمة تحتمل أكثر من معنى لغرض سياسى أو غيره ؟ .. الخ ..

ومع هذا ، فان استخدام المنهج التاريخى ، من حيث نقد المادة التاريخية وتحليلها ، لا يبعد بهذا البحث كثيرا عن امكانية استخدام منهج تحليل المضمون ، لا بالطرق الاحصائية الشائعة ، بل من حيث ان منهج تحليل المضمون قد يصلح ـ كمنهج أولى ـ فى " وصف الاتجاهات العلمية والسياسية ، وأنماط قضاء وقت الفراغ ، والعلاقات الانسانية " (٢) .

١ـ يمكن فى هذا الرجوع الى :

- ڤان دالين ، مرجع سابق ، ص ٣٠٦ .
- عمر الشيبانى ، مرجع سابق ، ص ١٠٤ .

٢ـ محمد الجوهرى وعبد الله الخريجى ، طرق البحث الاجتماعى الطبعة الثالثة (القاهرة : دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٨٢)، ص٢٢٧.

أهمية البحث :

تستند أهمية هذا البحث الى سندين أساسيين :

أولهما : المكانة التاريخية التى يحتلها أبو العلاء المعرى ، تلك المكانة التى حققا بما اكتسبه من ثقافة وعلم باللغة والأدب والفلسفة جعلت كثيرا ممن جاءوا بعده يضفون عليه من صفات الكمال مالم يضفوا على غيره أيا كان ، حتى ان التبريزى أحد علماء اللغة ليقول عنه " ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى " ، وكانوا يقولون " كان بالمشرق لغوى وبالمغرب لغوى فى عصر واحد ، ولم يكن لهما ثالث ، وهما أبو العلاء وابن سيدة " (١) وقد انعكست هذه المكانة على الكتابات التى تناولت شخصية أبى العلاء منذ وفاته وحتى وقتنا هذا ، فأصبحت تلك الكتابات مؤشرا على ارتفاع قدره .

وثانيهما : تلك المكانة التى تبوأها ديوان " لزوم مالا يلزم " فى تاريخ الشعر العربى ، فكما يقول شوقى ضيف (٢) ان

١ـ شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ط١٠ (القاهرة : دار المعارف ١٩٧٨) ، ص ٣٧٨ .

٢ـ المرجع السابق ، ص ٣٩٨ .

هذا الديوان أول ديوان في اللغة العربية يؤلف على طريقة خاصة يذكرها الشاعر في مقدمته ويطبقها على أبياته بيتا بيتا ، وهذا من حيث الشكل الفنى . أما من حيث المضمون فان هذا الديوان هو شعر الفلسفة التى اعتنقها أبو العلاء . وقد ظل بغير شرح حتى شرح بعضه العلامة اللغوى ابن السيد البطليوسى (ت ٥٢١هـ) [(١)] وعلى الرغم من أن أبا العلاء قد شرح بنفسه ديوانه السابق على اللزوميات . وهو ديوان " سقط الزند " فى كتاب اسماه " ضوء السقط" ، وشرح دواوين بعض كبار الشعراء السابقين عليه كالمتنبى وأبى تمام ، فانه لم يترك شرحا لديوان اللزوميات . وحتى عهد ابن السيد البطليوسى ــ وهو عالم أندلس ــ لم يقم أحد بشرح اللزوميات .

وفى ضوء هذين الندين ، مكانة الشاعر ، ومكانة الديوان ، يسعى البحث الحالى الى محاولة تحسس معالم فكر تربوى عربى من خلال هذا العمل الأدبى الشهير .

١ـ أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسى ، شرح المختار من لزوميات أبى العلاء ، تحقيق حامد عبد المجيد، القسم الأول (القاهرة : مركز تحقيق التراث ، ١٩٧٠).

حياة أبى العلاء المعرى : *

اسمه احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، وكنيته أبو العلاء ، ولقبه المعرى نسبة الى قرية " معرة النعمان " التى ولد بها من بلاد

---

* حول هذه النقطة يمكن الرجوع الى :

- ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس م١ (بيروت : دار صادر ، د٠ت٠) ص ١١٣ حتى ١١٦ ٠
- خير الدين الزركلى ، الأعلام ج١ ، ط٧ (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٦) ص ١٥٧ ٠
- طه حسين ، تجديد ذكرى أبى العلاء ، ط ٨ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٦) ص ١٠٨ ومابعدها ٠
- ــــــ ، مع أبى العلاء فى سجنه ، ط١٣ (القاهرة : دار المعارف ،)
- شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ٠ مرجع سابق ٠ ص ٣٧٦ ومابعدها ٠
- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) أبو العلاء المعرى ٠ أعلام العرب (٣٨) (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، ١٩٦٥) ص ٣٣ ومابعدها ٠

الشام وتنوخ قبيلة عربية أصيلة يتصل نسبها بيعرب بن قحطان ويشهد المؤرخون لها بأنها " كانت من اكثر العرب مناقب وحسبا " ، وبنو الساطع الذين منهم بيوت المعرة ، أعز بطون تنوخ ، وبيت أبي العلاء من بني سليمان ابن داود بن المطهر سليل الساطع ، ويقول فيهم " ابن العديم " مؤرخ حلب " وأكثرها قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وأدبائها من بني سليمان " ٠

وقد ولد أبو العلاء في بيت علم وقضاء وجاه ، وكانت ولادته سنة ثلاث وستين وثلاثمائه (٣٦٣ هـ) الموافقة لسنة ٩٧٣ ميلادية ٠ وكان نحيف الجسم ، وأصيب بالجدري صغيرا فعمي في السنة الرابعة من عمره ، وقال الشعر وهو ابن احدى عشرة سنة ٠ وطلب العلم وبرع فيه حتى اشتهر ٠

ودخل بغداد سنة ٣٩٩ هـ وظل فيها قرابة سنة ونصف سنة ثم عاد الى معرة النعمان ، ولزوم منزله ، وشرع في التصنيف ، واخذ عنه الناس وسار اليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، وسمي نفسه " رهين المحبسين " للزومه منزله وذهاب بصره ، ويذهب بعض الكتاب الى أنه رهينه ثلاثة محابس لا محبسين اثنين ، ويستدلون لذلك بقوله في اللزوميات :

ألاني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لنقدي ناظري ، ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث (١)

١ـ أبو العلاء المعرى ، لزوم مالا يلزم ، ط٢ (الجزء الأول) (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦) ص ١٦٧ ٠

وقد ظل ابو العلاء معتكفا فى منزله هذا من بعد عودته من بغداد فى نحو سنة ٤٠٠ هـ حتى وفاته سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة ، وثمان وخمسين وألف بعد ميلاد المسيح •

ويذكر المؤرخون لأبى العلاء أنه قضى هذه الحقبة فى التدريس لطلابه الذين كانوا يقصدونه من كل صوب وصوب ، وفى تأليف الكتب ، ومؤلفاته كثيرة ومشهورة ومن أشهرها رسالة الغفران ، وديوان سقط الزند ، وديوان اللزوميات ، وغيرها كثير • وكان يتصف الى جانب علمه وثقافته بصفات خلقية رفيعة أطنب المؤرخون فى تفصيلها ، كما كان يرى رأى بعض الحكماء (= الفلاسفة) فى عدم ايلام الحيوان ، ومن هنا جاء تحريمه أكل اللحم على نفسه ما يقرب من خمس وأربعين سنة •

العوامل المؤثرة فى فلسفة المعرى التربوية :

١ ـ ظروف عصره • ٢ ـ ثقافته •

٣ ـ سماته الشخصية •

١ـ ظروف عصره :

كان للأوضاع السياسية والاجتماعية فى عصر أبى العلاء المعرى أثر واضح فى تشكيل فكره ، وقد انعكس هذا الأثر على شعره فقدم لنا آراءه التى يغلب عليها التشاؤم فى صورة تنبىء عن عصر قلق مضطرب تتطاحن فيه الأهواء ، وتتصارع الطبقات ، وتتوارى القيم الخيرة أمام القيم الشريرة السائدة •

وخلال الفترة التى عاشها أبو العلاء (٣٦٣ ـ ٤٤٩هـ) عانت البلاد العربية والاسلامية من التشرذم والتمزق ، فمن الناحية السياسية كانت حلب خاضعة لحكم الحمدانيين من قبل ذلك بفترة ، وكانت مصر خاضعة لسلطان الفاطميين ، ويحكمها الفاطميون على المذهب الشيعى الاسماعيلى ، وكان الخليفة العباسى فى بغدادا ضعيفا ، وكانت جزيرة العرب تتبع الحاكم الفاطمى فى مصر حينا ، ثم يسيطر عليها غيره حينا آخر ..

ويروى لنا الذهبى [١] كثيرا من الكوارث والفتن والانقلابات والحروب والاغتيالات التى كانت سمة هذه الحقبة . وفى هذا يقول طه حسين : [٢]

" قد عملت من غير شك عملا غير قليل فى تكوين الفلسفة العلائية ، فلابد من فهمها اذا حاولنا أن نفهم ابا العلاء ، ونحن اذا فهمنا هذه الحياة

١ـ شمس الدين الذهبى ، كتاب دول الاسلام ، جـ١ تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤) من ص ٢٢٦ حتى ٣٦٤ .

٢ـ طه حسين ، تجديد ذكرى أبى العلاء ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

السياسية السيئة ، وقرناها الى غيرها من التى اشتركت فى تكوين هذا النسيج الفلسفى الذى تمثله اللزوميات لم يبق ما يحمل على لوم أبى العلاء أو تأنيبه ، فان كل شيء حوله انما كان يزهد العاقل فى الحياة ، ويرغبه عنها ، ويملأ نفسه سوء ظن بها ، وقبح رأى فيها ... " .

ولم تختلف الناحية الاقتصادية عن الناحية السياسية كثيرا فقد شاع القحط ، وعم الكساد ، لانشغال السلطات الحاكمة بتثبيت نفوذها ودفع معارضيها ، ورد الفتن عنها ، وقد كثرت المجاعات والأوبئة ونظرة على سنوات مختلفة من مراحل عمر ابى العلاء وما كان فيها من سوء الحالة الاقتصادية ، كافية أن تدلنا على ما آلت اليه نفسيته بعد ذلك من قلق واضطراب وسوء رأى فى المال والثروة . فالذهبى يروى لنا أن فى سنة ٣٧٩ هـ (١) " عظم البلاء بأمر العيارين واللصوص ببغداد وأخذوا الناس نهارا جهارا ، وقاتلوا الناس ... ونهبت الأموال " وفى سنة ٣٩٢ " زاد البلاء ببغداد " وفى سنة ٤١١ هـ " كان القحط بالعراق حتى أكلوا الجيف والكلاب " .

١ـ شمس الدين الذهبى ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣١ .

وقد أثمرت هذه الأوضاع السياسية والاقتصادية مجتمعا متفسخا مقهورا ، ناقما ، يضم طبقتين متمايزتين : طبقة المترفين وطبقة الكادحين المعذبين فى الأرض •

وقد قدم لنا أبو العلاء المعرى صورا واضحة لهذا المجتمع المتفسخ فصور لنا فى اللزوميات ظلم الملوك ، وتسنمهم الملك من غير استحقاق بل بالخديعة والمكر ، وصور لنا الفساد المستشرى فى طبقات المجتمع فالقضاة ظالمون كالحكام ، والوعاظ كاذبون منافقون ، يحرمون على الناس ما يحلونه لأنفسهم ، والفقهاء والعلماء يتصارعون على كسب مودة الحكام ، ويبيعون دينهم بدنياهم •

ولم تكن الحياة العقلية والثقافية بأكثر استقرارا من الحيوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فقد ازدادت مظاهر التعصب الشعوبى والمذهبى ، وأذكى الحكام الخلافات بين الفرق الدينية فى محاولة منهم لاستقطاب اهتمامات الجماهير بعيدا عن السلطة • كما أن كل حاكم كان يتلمس لأسلوب فى الحكم تخريجات دينية ، وفتاوى ، ويصطنع لبلاطه علماء وشعراء يضفون عليه من الهيبة والجلال ماهو بحاجة اليه من أجل توطيد نفوذه ، وتثبيت عرشه ، وقد انعكس هذا كله أيضا فى اللزوميات وصور لنا أبو العلاء أحوال فقهاء عصره وعلمائه •

٢ ـ ثقافة أبى العلاء :

تقدم أن أبا العلاء نشأ فى بيت علم وأدب وقضاء ، وقد تعلم على

يدى والده فى بدء حياته ، وكانت اصابته بالعمى فى الرابعة من عمره عقبة فى طريق تعليمه العلوم الطبيعية التى تحتاج الى الحواس الصحيحة فكان المتاح أمامه أن ينطلق فى العلوم العقلية واللسانية . وقد ظل أبوه حيا حتى سنه ٣٧٧ هـ (على ما روى ياقوت الحموى فى معجم الأدباء) حيث توفى ورثاه أبو العلاء بقصيدة شهيرة كانت سببا فى التفات الدكتورة بنت الشاطىء الى الخطأ الذى وقع فيه ياقوت وتبنت رواية ابن العديم من أن أبا العلاء قد مات عام ٣٩٥ هـ (١) .

والذى يهمنا فى ذلك أن فترة تربيته وتعليمه على يدى أبيه قد امتدت من عام ٣٦٣ الى ٣٩٥ هـ . ومن الثابت أن أبا العلاء قد تردد خلال تلك الفترة على حلب وقد كانت حلب فى تلك الفترة كما يقول طه حسين (٢) احدى الحواضر الكبرى للمسلمين ، تزدهى بمن فيها من كبار العلماء والأدباء وفحول النظم والنثر الذين دعاهم اليها سيف الدولة فى أيامه الغر .

وقد ذكر المؤرخون أن أبا العلاء سافر الى أنطاكية أيضا ، وكانت أنطاكية حاضرة من حواضر المسلمين حتى سنة ٣٥٣ هـ ثم ملكها الروم الى سنة ٤٧٧ هـ ، وكان بها مكتبة عربية تشتمل من نفائس الكتب على عدد

١ـ عائشة عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص ٦٨ .

٢ـ طه حسين ، تجديد ذكرى أبى العلاء ، مرجع سابق ، ص ١١٥ .

غير قليل ، فحفظ منها أبو العلاء ماشاء الله أن يحفظ [(١)] .

وقد فعل نفس الشيء في مكتبة طرابلس ، وزار اللاذقية ، ويبدو من كلام المؤرخين أنه ألم في رحلته الى اللاذقية بالثقافات المسيحية واليهودية ، حيث لم يكن ذلك متاحا له في حلب . والمتأمل في أشعار أبي العلاء بعامة ، واللزوميات بخاصة ، يقف على ما كان يتمتع به أبو العلاء من ثقافة عريضة ، وعلم بالفقه والسنة والعروض والنحو والصرف ، والتاريخ ، والأدب والنقد . كما تنم أشعار اللزوميات عن المام واسع بالثقافات المستمدة من المسيحية واليهودية . وقد أثارت عقيدة أبي العلاء معارك فكرية واسعة بدأت قريبا من عصره وامتدت الى عصورنا الحديثة ، فقد اتهمه بعض حاسديه بالالحاد والزندقة ، وصنعوا له روايات ، وأسندوا اليه أبياتا من الشعر ظاهرها ينم عن الالحاد أو التشكك . ولكن كثيرا من الباحثين أنصفوه ودفعوا عنه تلك التهمة وأثبتوا أن وراءها حقدا وحسدا من بعض معاصريه . وليس هذا مجال مناقشة مثل هذه النقطة [(٢)] وقد تجسدت ثقافة أبي العلاء في هذا الكم

١ـ المرجع السابق ، ص ١١٦ .

٢ـ حول هذه النقطة كتب ابن العديم مؤرخ حلب كتابا كاملا أسماه " الانصاف والتحرى ، في دفع الظلم والتجرى عن أبي العلاء المعرى " أشار الزركلي (الأعلام ١ / ١٥٧) الى أن قسما منه قد طبع . كما ناقش هذه المسألة باستفاضة كثير من الباحثين المتخصصين في تاريخ الأدب .

من المؤلفات التى تركها من بعده ، كما يمكن الاستدلال على حجم هذه الثقافة بتلك المكانة الضخمة حتى يحتلها أبو العلاء في تاريخ الأدب العربى ، والتى أشرنا اليها فى الحديث عن أهمية هذا البحث ٠

سمات شخصية أبى العلاء :

كان للتكوين الفيزيقى لأبى العلاء ، وللتنشئة العلمية التى تربى عليها أثر واضح فى سماته الشخصية ، فالمؤرخون له يجمعون على أنه كان مشهودا له بحدة الذكاء ، وقوة الذاكرة ، ويروون حوادث كثيرة فى هذا المضمار ٠

فلما اشتد عوده ، وأخذ حظه من الشباب ، وارتحل فى البلاد وتفتحت مداركه أكثر على حقائق الحياة من حوله ، ووضحت معالم فلسفته الخاصة ، بدأ يميل الى العزلة ، ويعتز بالخلوة ، ويأنس بالوحدة ٠

وكان لفقد البصر تأثير ملموس فى تنمية احساسه بالتشاؤم بالاضافة الى ما أصابه فى صباه من مرض الجدرى ٠ وقد استفاض طه حسين فى شرح هذا التكوين الشخصى لأبى العلاء فى كتابه " مع أبى العلاء فى سجنه " حيث يذهب طه حسين الى أن العلل التى أصابت أبا العلاء كثيرة ، منها العلل الجسمية كالجدرى والعمى ، ومنها العلل النفسية مثل اسرافه فى الكبرياء والغرور والتى تبدو واضحة فى فلسفته فى اللزوميات حين يلح على اكبار شأن المعرفة العقلية ، ويحط

من قدر المعرفة الحسية ٠

ويرى بعض الباحثين أن اسراف أبى العلاء فى التشاؤم أدى بـه الى انكار سلوك الانسان وأخلاقه ، حتى [illegible] معنى أخلاقى يبرر الاستمرار فى العيش (١) ٠

ومجمل القول أن العلل أحاطت بأبى العلاء أسهمت فى بلـورة سماته الشخصية ، فجاءت شخصية فريدة من نوعها ، فقد قسا على نفسه فى حياته الخاصة ، فكان نباتيا لا يأكل اللحوم ، وظل حبيـس داره ، وكان له دهليز مظلم يتخفى فيه اذا أراد الأكل ، حتى عن خامه ، كمـا أضرب عن الزواج ٠ وقد استنتج دارسو أبى العلاء أن هذا النمط مـن الحياة قد أتاح له قدرا كبيرا من الحرية فى التعبير عن الرأى ، فهـو سجين بطبعه لا يخشى السجن ، ولم يتزوج أو ينجب فيكون له أهـل يخاف عليهم ٠ وكان زاهدا بطبعه فلا المال يغريه ولا هو يطمع فى جـاه أو منصب ٠

وخلاصة ما سبق أن فلسفة المعرى كانت نتاج تفاعل ظـروف متشابكة متآزرة ، عصر فسد سادته وقادته ، وشخصية فذة نابعة تقعد بها

١ـ عبد القادر زيدان ، التشاؤم فى رؤية أبى العلاء ، مجلة فصول (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب) م ٤ ، ع ٢ ، ١ ـ ٣ / ١٩٨٤م ص ٢١٤ ٠

المعاناة والقهر عن السمو الاجتماعى ، وثقافة رفيعة متميزة • كل ذلك أثر فى تشكيل فكر أبى العلاء وفلسفته على نحو ما سنرى فى السطور القادمة •

الدراسة التحليلية فى ديوان اللزوميات

أ ـ قضايا فلسفية :

أولا : فلسفة الوجود عند أبى العلاء .

ثانيا : المعرفة .

ثالثا : الطبيعة الانسانية .

رابعا : القيم .

خامسا : تعليم المرأة .

ب ـ معالم فلسفة التربية عند أبى العلاء .

أولا : فلسفة الوجود عند أبي العلاء :

ليس هناك تعريف محدد للوجود [1] ، لأن التعريف يقتضي تحديد صفات تميز الشيء المراد تعريفه عن غيره من الأشياء التي هي من جنسه ، أو تقترب من جنسه ، وهذا لا ينطبق على الوجود ، فغاية ما يمكن قوله عن الوجود أنه ضد العدم ٠

ولكن الفلاسفة على مدى تاريخ الفلسفة الطويل ، ما يزالون يجتهدون في تحديد القضايا الوجودية ، وتكييف البحث الفلسفي العقلي للمذاهب المختلفة في تفسيرها ٠ وقد أثمرت جهودهم تصنيفات كثيرة لقضايا الوجود ، فحينا نراهم يفرقون بين طرق ادراك الوجود

---

١ ـ حول البحث في فكرة " الوجود " يمكن الرجوع الى المراجع الآتية لمزيد من التفصيل :

ـ عبد الرحمن بدوي ، مدخل جديد الى الفلسفة ، ط ٢ (الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٩) ص ص ١٧٥ ـ ٢٠٠٠

ـ حسن عبد الحميد ، مدخل الى الفلسفة ، (القاهرة : مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٧٧) ص ص ٢٩٧ ـ ٣١٤ ٠

ـ محمود حمدي زقزوق ، تمهيد للفلسفة ، (القاهرة : مكتبة الانجلو ، ١٩٨٣) ص ص ١٦٩ ـ ٣٠٥ ٠

ـ يحيى هويدي ، مقدمة في الفلسفة العامة ، ط ٥ (القاهرة مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٨) ص ص ٤٩ ـ ٨٧ ٠

فيرون أن الانسان يمكن أن يدرك الوجود تلقائيا فى أية تجربة يعانيها ، مهما تكن عابرة أو سطحية ، كما يمكنه أن يدرك الوجود بالتأمل العقلى الصرف كما هو الحال عند ديكارت •

وحينا آخر يفرقون بين الموجودات ويقسمونها الى :

١ ــ **الممكن** : ويقصد به الشيء الذى فى امكانه أن يوجد ، فهو بهذه الصفة غير موجود ، ووجوده مشروط بشروط معينة • فأنا الآن أكتب وتوقفى عن الكتابة " ممكن " بشروط منها : الرغبة والقدرة •

٢ ــ **الواقعى** : وهو يقابل الممكن ، ويقصد به الشيء الموجود فعلا فى الواقع المحسوس ، سواء أكان هذا الشيء ذهينا كالأفكار التى تمر بأذهاننا حاليا ، أم كان ماديّا ملموسا •

٣ ــ **الضرورى** : والموجود الضرورى يقصد به الـ ـلة الأولى للوجود ، أو الذات الالهية ، وقد كان افلاطون يطلق كلمة " واجب الوجود " على الله بهذا الفهم ، ذلك أن كل موجود انما يفتقر فى وجوده الى موجود آخر أوجده ، وهكذا تتسلسل القضية حتى نصل الى ضرورة أن تكون هناك علة لوجود جميع الموجودات ، وهى الموجود بذاته •

وحينا ثالثا يفرقون بين الموجودات من حيث العدد فيقولون

ان أصل الموجودات الوحدة ، وأصحاب هذا الرأى من الفلاسفة يؤمنـــون بأن كل الموجودات ترجع الى أصل واحد هو الخالق الأعظم ومن بينهم وجد فلاسفة قالوا بوحدة الوجود مثل الحلاج واسبينوزا . ومن الفلاسفة مــن قالوا بالاثنينية أى أن كل الموجودات فى العالم أنما تعود الى أحــد أصلين : المادة والروح .

وفريق ثالث يقول بالكثرة ، بمعنى أن أصول الموجـــودات متعددة فأصول الأشياء المادية أربعة : الماء والهواء والتراب والنــار وأصول الأشياء غير المادية : الحب والكراهية . .

وعلى أية حال ، فان أبا العلاء لم يكن بمعزل عن كثير من تلـك الاتجاهات الفلسفية فى نظرته للوجود ، بل لقد اتهم بأنه استقى بعـض فلسفته من مذاهب اليونان ، أو من مذاهب الهنود [1] .

وقد اقتضت حكمة الخالق أن يكون الوجود قائما على التعـــدد الظاهر الذى يؤدى الى الوحدة ، وقد شغلت هذه القضية الفلاسفة على مر العصور ، ففى العصر الذى ازدهرت فيه الفلسفة اليونانية نجــد آراء كثيرة للرواقيين والسوفسطائيين وغيرهم تخوض فى مسائل الوحـــدة والتعدد أو الكثرة ، والسكون والحركة وغيرها من المسائل المجردة الــتى ميزت الفلسفة من سواها من العلوم بأنها لا مقياس ثابتا للبحث فيها .

١ـ شوقى ضيف ، مرجع سابق ، ص ص ٣٨٨ ــ ٣٨٩ .

واستلفت نظر الشعراء هذا الصراع الدائر بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين الثبات والتغير ، بين الصواب والخطأ ، بين الحلال والحرام ، بين المطلق والنسبى ، بين القوة والضعف ، بين العدل والظلم، بين الليل والنهار ، بين الحاكم والمحكوم ، بين الحياة والموت ٠٠ الى آخر تلك الثنائيات التى تشمل كل شيء ، فنظر بعض الشعراء فى رومانسية الى هذه الثنائية ورأوا فيها رؤى ممعنة فى الخيال ، ونظر اليها بعضهم فى واقعية فرأى فيها صورا حية للتناقض الذى يسيطر على الانسان ، ذلك المخلوق الضعيف المغرور ، الضئيل المتشامخ ، الضحل المستفحل، الخاوى المنتفخ ٠

وأكثرها ما يتجلى الصراع بين الحق والباطل والخير والشر والظلم والعدل حين تكون الأنظمة الاجتماعية والسياسية مضطربة ، فمنذ الفتنة الكبرى بين الشيعة والأمويين والناس يختلفون فى أمر الفريقين العظيمين اللذين يضم كل منهما بعض الصحابة فما أن انتهى بعض عهد بنى أمية ، حتى بدأت الفرق الاسلامية تتوالد وتتكاثر مما زاد الأمر صعوبة ، فلم يعد من اليسير على الانسان العادى أن يصطنع له طريقا وسطا بين بين ٠

وفى عصر أبى العلاء كما سلف القول كانت الأمور السياسية والاجتماعية أشد ما تكون اضطرابا ، وحياة الناس كأشد ما تكون ضيقا وعنتا ، فاذا أضفنا الى ذلك ما كان يتمتع به أبو العلاء نفسه من سوء ظن وعجز حسي ، أدركنا الى أى حد يمكن أن تكون صورة الحياة سوداء فاحمة السواد فى نظر هذا الشاعر الذى ارتضى لنفسه ثلاثة سجون كما يقول :

أرانى فى الثلاثة من سجونـــى   فلا تسأل عن الخبر النبيث [1]

لفقدى ناظرى ، ولزوم بيـــتى   وكون الجسم فى الجسد الخبيث

ويبدو تناقض الحياة واضطرابها لأبى العلاء المعرى كما لو كـــان طبعا ثابتا فيها لايتغير بتغير من يرثون الأرض من ملوك وحكـــام ، يتعاقبون فيها عادلين طورا وظالمين طورا ، فلا هم يتعظون بمـــن سبقهم من الظالمين ، ولا الناس يتعظون بما يحدث لمن يملكـــون فيتيهون وتطويهم الأرض ، يقول المعرى متحدثا عن هذه الفكرة :

يأتى على الناس اصباح وامســاء   وكلنا لصروف الدهر نَسّاء [2]

وكم مضى هجرى ، او مشاكـــله   من المقاول، سروا الناس أم ساءوا [3]

تتوى الملوك ومصر فى تغيرهـــم   مصر على العهد، والأحساء أحساء

خسست يا أمنا الدنيا فأف لنـــا   بنو الخسيسة، أوباش ، أخســاء

وقد نطقت بأصناف العظات لنـــا   وأنتِ ، فيما يظن القوم ، خرساء

فهو هنا يتناول مبدأ تربويا على جانب كبير من الأهمية وهو مبدأ

١ـ النبيــث : الشــرير .

٢ـ نســـاء : صيغة مبالغة بمعنى كثير النسيان .

٣ـ هجـــرى (بفتح الهاء والجيم) نسبة الى هجر (بلـدة فـــى البحرين) والمقاول (بفتح الميم) ملوك اليمن .

" الخبرة ز فالخبرة المربية هى تلك المواقف التى يكتسب الفرد خلالها تعديلا لسلوكه مستمدا اياه مما استوعبه من تلك المواقف . وهو يعرض هذا المبدأ من خلال ثنائيتين تعتوران العلاقة بين الحاكم والمحكوم هما : العدل والظلم من ناحية الحاكم ، والثبات والتغير من ناحية المحكوم ، وهو يصل بعرضه الى قمة الدراما التراجيدية التى نراها فى نهايات الحاكم المستبد دائما ، ويدعو صراحة الى ما يسمى بالخبرة المربية ، أوبعبارة أوضح ، الى أن يتعظ الناس بما يرون :

فلا تغرنك شم من جبالهم   وعزة ، فى زمان الملك ، فعساء (١)
نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا   برغمهم، فاذا النعماء بأساء

ويتحدث أبو العلاء عن أهمية الانتفاع بالعلم والخبرة بشكل أكثر صراحة فيقول :

اذا كان علم الناس ليس بنافع   ولا دافع ، فالخسر للعلماء

وقد يكون التنكر والتناقض بين أقرب الأقرباء ، لا بين العلماء والمتعلمين فحسب ، فقد يعترف الأب بأبنائه ، ويحنو عليهم ، ولكنهم يتنكرون له ويتنصلون منه بعد أن يكبر ويريدون أن ينسلخوا من ارتباطهم به بعد أن رباهم :

واعترف الشيخ بأبنائه   وكلهم ينذر منه انتفاء
ربهم بالرفق ، حتى اذا   شبوا عنا الوالد منهم جفاء

٤ـ عزة قعساء : أى ثابتة متمكنة .

ويقدم أبو العلاء صورة طريفة يوازن فيها بين الخير والشر ، فالخير بطيء مثل نار ما أن تشب حتى تخمد لأن بناتها ضعيف بارد ، والشر سريع كاسح مثل نار عظيمة ما ان تشب حتى تتأجج لأن النبات الذي تتغذى به صلب قوى جاف ثم يصور لنا المعرى الخير الخير كالأشجار المثمرة لا يجنى غارسها شمرا منها الا بعد عناء ومكابدة ، أما الشر فهو كالنباتات الشوكية تنبت فى الأرض بسهولة لا تحتاج الى سقاية بماء كثير ولا قليل :

الخير كالعرفج المحطور ، ضرّمه راع ، يئط ، ولما أن ذكا خمدا (1)
والشر كالنار ، شبت ليلها بغضا يأتى على جمرها دهر وما همدا (2)
أما ترى شجر الاثمار متعبة لم تجن ، حتى أذاقت غارسا كمدا
والشاك فى كل أرض حان منبته بالطبع ، لا الغمر يستسقى ولا الثمدا ؟ (3)

وقد يأتى التناقض والاضطراب من داخل الشيء نفسه ، فحسن يتنكر الانسان لرسالته تصبح شخصيته ثنائية التكوين ، فهو يعظ الناس صباحا ألا يشربوا الخمر ثم يخلو فى المساء الى كؤوسه فيعب منها ما شاء :

رويدك قد غررت وانت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

١ـ العرفج : شجر ضعيف مرطب ، يئط : يحدث صوتا .
٢ـ الغضا : شجر صلب الخشب .
٣ـ الشاك : الشوك ، الثمد : الماء القليل والغمر : الماء الكثير .

يحرم فيكم الصهباء ظهــرا ويشربها على عمد مســاء

والحديث عن هذا النوع من الثنائية الشخصية ، أعـــنى ازدواج الشخصية وتناقضها مع نفسها كثير فى ديوان أبى العلاء ، ولعل كثرته تعود الى سببين : أولهما أن أبا العلاء كان بطبعه سيء الظـن بالناس كما أشرنا منذ قليل عند الحديث عن شخصيته ، والثانى أن عصره كان بالفعل عصر فساد كما سبق القول ومن هنا سنجد أبا العلاء يهاجـم النفاق كمظهر من مظاهر الثنائية الممقوتة فى الشخصية الانسانية ٠

يلقاك بالماء النمير الفــتى وفى ضمير النفس نار تقـــد
يعطيك لفظا لينا مســـه ومثل حد السيف ما يعتقـــد

كما نجده ينعى على هؤلاء الذين يتحكمون فى الناس بغير الحق، يضلونهم السبيل وواجبهم الذى بوأهم مكانتهم هو هداية الناس :

يسوسون الأمور بغير عقــل فينفذ أمرهم ويقال : ساســة
فأف من الحياة ، وأف مـنى ومن زمن رئاسته خساســة

ويقـــول :

مل المقام فكم أعاشر أمــة أمرت بغير صلاحها أمراؤهـا
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤهـا

وينظر أبو العلاء نظرة عميقة الى تناقض الوجود فى ذاته ، فهـذه الأيام التى تمر بالانسان تُحدث فى مروها نقصا وازديادا فى وقت واحــد ،

فأيامه التى عاشها تزيد يوما ، وأيامه التى بقيت له ليعيشها تنقص يوما ، فالنقص والزيادة صفة للشيء فى ذاته ، وقد ضرب لذلك مثلا بعملية حسابية ، يعني أن عملية حسابية واحدة هي الضرب قد تحدث نقصا وقد تحدث زيادة فالرقم (٥) اذا ضرب فى نفسه زاد فصار خمسا وعشرين ، والنصف ($\frac{١}{٢}$) اذا ضرب فى نفسه نقص فصار ربعا ، ويستنتج أبو العلاء من ذلك أن النقص والزيادة اللذان يحدثان للجسم تتأثر بهما النفس ، فالانسان كلما تطاول به العمر ازداد ما عاشه ونقص ما تبقى له سواء فى ذلك جسمه وعقله ، فقد مضت أكثر قوته الجسمية والعقلية ويشير الى ذلك قوله تعالى : " ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا " ، ويعبر علماء النفس عن ذلك بتناقص القدرات العقلية نيتجة اضمحلال القوى الدنية .

يقول أبو العلاء معبرا عن هذا المعنى :

وتدانى الأيام يحدث نقصا وازديا دا ، والجسم للنفس تبع (١)

خمسة فى نظيرها خمس خمسا ت ، تنمت ،والنصف فى النصف ربع

وقد تكرر هذا المعنى مرة ثانية فى اللزوميات حين قال مخاطبا ربه ان غيره يسمو ويرتفع كالمئات اذا ضرب بعضها فى بعض علت قيمتها وتزايدت ، أما هو (أى الشاعر) فانه يزداد نقصانا كالكسر اذا ضرب فى

١ـ تبع :(بكسر التاء وسكون الباء) أى تابع .

كسر مثله :

سما نفر ضرب المئين[1] ولم ازل بحمدك مثل الكسر يضرب في الكسر

ولم يقف تناول أبي العلاء في لزومياته للمسائل الوجودية عند حدود تناقضات الوجود ، بل تحدث في غير موضع عن نهاية الوجود الانساني ، وكانت قضية الموت من أهم قضايا الوجود التي كان له فيها رأى محدد ، ذلك أنه كان ينظر الى الحياة على أنها المتغير وللموت على أنه الثابت ، أى أن الحقيقة الوحيدة في الوجود هي الموت الذى لاشك فيه ، ويتضح ذلك من تركيزه على أن الحياة ماهي الا " جسر " عبور بين حالتين من العدم في قوله :

حياة كجسر بين موتين ، أول وثان ،وفقد الشخص أن يعبر الجسر

وقولــــه :

نمر سراعا بين عدمين مالنا لباث ،كأنا عابرون على جسر

وقولــــه :

ودنياى القى بطول الهوان وهل هى الا كجسر عبر

١ـ ضرب المئين : أى مثل ضرب المئات بعضها فى بعض .

وقولـــــه :

في العدم كنا ،وحكم الله أوجدنا ثم اتفقنا على ثان من العـــــدم

وأمام " الثابت " الوحيد وهو الموت ، ينبغي التسليــــم بالضعف ، وقلة اليقين في الأشياء ، فالتغير هو الحقيقية المدركــة الملحوظة ، ولعل الفناء يشمل كل موجود بما في ذلك الجمادات :

أري الأشياء ليس لها ثبـات وما أجسادنا الا نبـــات
وما يدرى الفتى والظن جهل وأقضية الملـوك مغيبـــات
لعل نبات نعش والثريـــا وشرقة (1) للـردى متأهبـات

وقد آمن المعرى أيضا بأن المكان ثابت والزمان متغير ولذلــك فان على الانسان أن يباعد بينه وبين الأمل اذا مضى يومه عنه فيقــول :

أما المكان فثابت لا ينطـــوى لكن زمانك ذاهب لا يثبـــت

ويقـــول أيضا :

واذا رجعت الى النهى فذواهب الـ أيام غير مؤمل رجعاتهـــا

ولذلك نجد أبا العلاء يسقط الزمان من حسبانه ، فهو بحكـم طبيعته وبحكم اعتزاله ابن وقته ، يعيش الحاضر فقط ، ينسى ما تقضى

ـــــ

١ـ شرقة : اسم من أسماء الشمس نسبة الى شروقها .

ومضى من الزمن ، ولا يرهق نفسه بالأمل فى الآتى :

غدوت ابن وقتى، ماتقضى نسيته وماهو آت لا أحس له طعما

وتتكرر فكرة فناء الموجودات المادية فى اللزوميات ، فيقول أبو العلاء ان مما يدخل فى قدرة الله أن تفنى الثريا والنجوم :

باذن الله ينفذ كل أمر فنهنه فيض أدمعك السجوم(١)
يجوز بحكمه موت الثريا وأن تبقى السماء بلا نجوم

ولعل أبا العلاء من هذا المنطلق قد رفض فكرة التناسل والانجاب ، فهو يذكر كثيرا أنه متفرد بين أقرانه ، لا يريد أن يصل حبل النسل الذى انتهى اليه يقول :

تواصل حبل النسل مابين آدم وبينى ولم يوصل بلامى باء(٢)
على الولد يجنى والد ولو انهم ولاة على أمصارهم خطباء

وهو ينصح قارئه أن ينتهج نهجه فى قطع النسل لأن ذلك هو الخير :

١ـ نهنه : (فعل أمر) كفكف ، السجوم : الدموع الغزيرة . يعنى امنع دموعك من الهطل .

٢ـ اللام : شخص الانسان ، والباء : النكاح .. يعنى أنه لم يتزوج .

فكن بعض أشجار تقضت أصولها ولم يبق في الدنيا لهن غصون

ولا شك في أن هذه نظرة مبعثها تشاؤم أبي العلاء ، وسوء ظنه ، وهي تخالف السنة النبوية المطهرة • ولكنها على أية حال وجهة نظر اعتنقها وفي ظروفه وظروف حياته ما يبررها ، وربما كان دفاعه عنها واستمساكه بها محاولة منه لستر عيوبه ، وبخاصة أنه كان له نصيب وافر من الكبرياء والغرور • ففي أبيبيات أخرى نجد نظرته الى الآباء والأبناء محايدة ، فهو ينصح الأبناء أن يطيعوا آباءهم ويحملوا عنهم أثقالهم اذا تقدمت بهم السن :

تحمل عن أبيبك الثقل يوما فان الشيخ قد ضعفت قواه
أتى بك عن قضاء لم ترده وآثر أن تفوز بما حواه

وخير النساء عنده اللاتي لا يلدن ، فاذا ولدن فان خير النسل ما ينفع والديه ، لأن الأغلب الأعم في البنين العقوق ، وهذا يؤيد أنه كان سيىء الظن بفعل ما رآه في مجتمعه :

خير النساء اللواتي لا يلدن لكم فان ولدن فخير النسل ما نفعا
وأكثر النسل يشقى الوالدان به فليته كان عن آبائه دُفعا

وخلاصة آراء أبي العلاء في القضايا الوجودية كما تبدو في اللزوميات :

ـ أنه رجل آمن بالله ، ولكن ايمانه لم يبرأ من اهتزاز بسبب ما أحاط به من ظروف خاصة وعامة •

- وأنه يرى الفناء هو مصير كل الكائنات مادية وغير مادية .

- وأنه يرى أن الخير والشر والحق والباطل وغير ذلك من ثنائيات الوجود أمور طبيعية .

- وأنه ليس من أنصار التناسل والتكاثر .

المعرفة عند أبى العلاء :

قد يبدو للوهلة الأولى أن هناك تباعدا بين نظرية المعرفة والتربية ، ولكن النظرة المتأملة توقفنا على أن الحقيقة ليست كذلك ذلك أن اكتساب المعرفة من أهم وظائف التربية (١) .

ولذلك فان دراسة المعرفة من حيث طبيعتها ، ومصادر الحصول عليها وحدودها ، تعد مبحثا من أهم مباحث فلسفة التربية ، بل يذهب بعض الدارسين (٢) الى أن نظرية المعرفة مفتاح أساسى لفهم التربية

1- Luis. A. Reid, Philosophy and Education (London : Heinmman Educational Ltd. , 1973) P. 30 ..

٢- نادية جمال الدين ، " المعرفة عند التيارات الأربعة " فى : حسان محمد حسان واخرين ، دراسات فى فلسفة التربية ، (القاهرة : بدون ناشر ، ١٩٨٦) ص ١٣٣ .

عند أي تيار فكرى فلسفي من حيث ان الاختلاف بين فلسفات التربية يرجع في الأساس الى اختلاف نظرياتها في المعرفة ، ذلك لأن التربية جهد علمي منظم موجه بنظرية محددة في المعرفة •

وبصفة عامة يمكن حصر مصادر المعرفة في :

١ــ اخبار الآخرين • ٢ــ العقل •

٣ــ العقل والحواس معا • ٤ــ الحواس •

٥ــ الوحي •

وتختلف الفلسفات فيما بنهما من حيث الاعتداد بأي هذه المصادر فالمثاليون يؤيدون النزعة العقلية ، والماديون يميلون الى المعرفة الحسية ، والنقديون يأخذون بمبدأ الجمع بين العقل والحواس، والمتدينون يميلون الى الوحي كمصدر للمعرفة وقد يقدمونه على غيره وفي تاريخ الفكر الاسلامي شواهد كثيرة على الخلافات بين المدارس الفكرية الاسلامية حول ما سمي بالعقل والنقل ، وبرز المعتزلة كمدرسة فكرية متميزه في التاريخ الاسلامي أعلت من شأن العقل (١) •

• يمكن في هذه النقطة الرجوع الى :

١ــ سعيد اسماعيل على ، دراسات في التربية الاسلامية (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٢)•

٢ــ رمزى نجار ، الفلسفة العربية عبر التاريخ ، ط ٢ (بيروت : دار الافاق الجديدة ، ١٩٧٩) •

3- P. H. Hirst & R. S. Peters, The Logic of Education(London:Routledge & Kegan Paul, 1970.

4- Armstrong A.H., An Introduction to Ancient Philosophy.(London: Methuen & Co., 1972,.

وأما من حيث طبيعة المعرفة وامكانها فقد انقسم الفلاسفة كذلك الى فريقين يرى أحدهما أن معارفنا الذهنية مطابقة لحقائق الأشياء فى الخارج (أى خارج الذهن) وذهب فريق آخر الى عكس ما ذهب اليه هذا الفريق • والاغراق فى تفاصيل هذا الخلاف ليس من مقاصد البحث الحالى ، فما يهمنا ان أبا العلاء لم يقف بعيدا عن هذه الخلافات فنحن نراه أحيانا يرى رأى السوفسطائيين وأحيانا يهاجم السوفسطائيين ، وأحيانا يرى رأى المعتزلة ، وفى موقف آخر يهاجمهم ، وهكذا شأنه فى اللزوميات •

فقد تعرض أبو العلاء المعرى فى اللزوميات للحديث عن المعرفة الانسانية فاتهمها بالقصور والمحدودية ، ويرى بعض دارسى ابى العلاء (١) أنه تخطى حدود المعرفة الحسية بما فيها من قصور أحدثته تلك العاهة التى أصابته (العمى) أو غيرها من العوامل التى تحول بين الحواس وبين المعرفة التى تؤخذ من ذلك الطريق فالأبيات التالية تكشف لنا عن أبى العلاء وقد أرقته مشكلة عقلية لا تقبل المصالحة أو التبرير ، انها مشكلة وجود الانسان وعدمه ، وتطلعه الى ما ينتظر الانسان بعد الموت وقصور المعرفة فى هذه الحالة :

كل تسير به الحياة وماله ... علم على أى المنازل يقدم
ومن العجائب اننا بجهالة ... نبنى ، وكل بناء قوم يهدم

١ـ عبد القادر زيدان ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ •

والمرء يسخط ثم يرضى بالذى   يقضى، ويوجده الزمان ويعدم

وأبو العلاء يرى فى الموجودات الصماء مصدرا من مصادر المعرفة فقد يتعلم الانسان من ظواهر الطبيعة كالليل والنهار ، وآثار البشرية الباقية والحكمة المتجددة فى هذه الآثار :

وقد يعظ الانسان عى من الدجى   وينذره داع من الصبح أخرس

وما حرصه فى العلم يدرس كتبه   وقد شاهد الآثار تمحى وتدرس

ألم تر أشجارا تحرق عهدها   قديم ، وأخرى للشبيبة تغرس ؟

والانسان بطبيعته البشرية الناقصة عاجز عن استيعاب حكم كثيرة تتجلى فى ظواهر الطبيعة ، كما أن عناصر تلك الظواهر نفسها عاجزة عن ادراك كنهها :

لقد عشت الكثير من الليالى   ولم أرقب متى يقع الكسوف ؟

فهل لطوالع الأقمار عقل   فتعلم حين يدركها الخسوف ؟

أتسمع ؟ أو تعاين ؟ أو تعانى   بلاء ؟ أوتذوق ؟ أوتسوف ؟(١)

ويشككنا أبو العلاء فى المعرفة الواردة عن طريق الآخرين، والمعرفة عن طريق الآخرين واردة فى كل لحظة وقد نبهنا أبو العلاء مبكرا الى أن هذا النوع من المعرفة مشكوك فيه بما أن الآخرين قد لا يكونون صادقين • وهذه نقطة تنبه اليها الكتاب التربويون فى العصر

---

١ ـ تسوف : تشم •

الحديث فقال بعضهم * ان من الخطأ الاعتماد على الآخرين كمصدر للمعرفة لعدة أسباب :

١ ـ أن هذا المصدر قد يكون مدعاة للكسل العقلى .

٢ ـ قد يكون الآخرون غير صادقين .

٣ ـ قد يكون الآخرون غير ثقات فيما يخبروننا به .

٤ ـ قد يتعود الانسان على هذا المصدر ويستسلم له .

وعند ذلك نقع فى أخطاء ، ونحصل على معارف مزيفة ، وهذا ما ذهب اليه أبو العلاء فى قوله " قالوا فمالوا " حين يقول :

سألت عقلى فلم يخبر ، وقلت له   سل الرجال، فما أفتوا ولا عرفوا

قالوا فمالوا، فلما أن حددتهم   الى القياس أبانوا العجز واعترفوا

فهو فى عرضه ما أتاه من معرفة على ميزان القياس يؤكد مبدأ تربويا هاما فى المعرفة ، وهو مبدأ تساند مصادر المعرفة وتعاونها من أجل التوصل الى أصدق معرفة ممكنة . ومن ذلك قوله أيضا :

واعرض أحاديث من قوم اتوك بها   على قياسك تحلف أنهم ولعة (١)

---

١ ـ ولعة : (بفتح الواو واللام) كاذبون .

* ابراهيم الشافعى ، الاشتراكية العربية كفلسفة للتربية ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧١) ص ٣٧٣ .

ويتحدث أبو العلاء عن مظاهر التنازع فى عصره بين أدعيــاء العلم والمعرفة وهم المنجمون ، ويصفهم بالجهل مع ادعائهم العلم :

ينجمون وما يدرون ان سئلــوا عن البعوضة أنى منهم تقــف
وفرقتهم على علاتهــا مـلــل وعند كل فريق أنهم ثقفــوا

كما يتحدث عن سعة المعرفة واتساعهد باستاع الفكر الانســانى المتراحب الذى لا تحده حدود ، وعن امكانات العقل البشرى غــير المحدودة :

الفكر حبل متى يمسك على طرف منه ، ينط بالثريا ذلك الطرف
والعقل كالبحر ، فاغيضت غوائبه شيئا ، ومنه بنو الأيام تغــترف

ثم هو يحث على المداومة على استخدام العقل ويرى أن للعقــل نورا بمثابة نور الشمس ، فهو يهدى من يستخدمه وينير له ليل الشك :

فانك ان تستعمل العقل لا يزل مبيتك فى ليل ، بعقلك ، مشمس

وقد ناقش طه حسين بالتفصيل [1] قضية الشك فى المعرفة عند أبى العلاء ذلك أن أبا العلاء لم يتحرج من ابداء مشكله صريحا فى معظم آرائه " التقية " ، فقد صرح أبو العلاء وهو يهاجم الامامية ، وهم طائفة

١ـ طـه حسين ، تجديد ذكرى أبى العلاء ، مرجع سابق ، ص ص ٢٣٥ ، ٢٤٥ .

من الشيعة يقولون بعودة امامهم الغائب ، بأنه لا امام يعتد به سوى العقل فقال :

يرتجى الناس أن يقوم امام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن ،لا امام سوى العقل مشيرا فى صبحه والمساء
فاذا ما أطعمته جلب الرحمة عند المسير والارساء

ويقول فى موضع آخر :

سأتبع من يدعو الى الخير جاهدا وأرحل عنها ما امامى سوى عقلى

ولكنه مع هذا لم يسلم للعقل بالعصمة ، بل أشار الى أن العقل نفسه مادة يجوز عليه ما يجوز على سائر المواد :

ويعترى النفس انكار ومعرفة وكل معنى له نفى وايجابُ

كما أنه لم يكن من أنصار الشك المطلق ، كما هو حال السوفسطائيين ، فقد هاجمهم فى قوله :

وقال أناس مالأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لاشقاء ولا نعمى ؟
فنحن وهم فى مزعم وتشاجر ويعلم رب الناس أكذبنا زعما

وانما الواضح من اللزوميات أنه كان اذا شك ، فانما يشك فى بعض الغيبيات ، ولكنه لا يشك فيما يمكن التوصل اليه بالعقل أو بالمعرفة المتواترة باخبار الآخرين • وليس الشك فى المغيبات عند

أبى العلاء منسحبا على الذات الالهية ، فالواضح أن الرجل كان مؤمنا وهو يقول :

أثبت لى خالقا حكيما ولست من معشر نفاة

ويقول :

انفرد الله بسلطانه فما له فى كل حال كفاء
ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عن ذى رشاد خفاء ؟

وخلاصة آراء أبى العلاء فى المعرفة :

١ ـ أن المعرفة مكتسبة ٠
٢ ـ أن العقل هو خير مصدر من مصادر المعرفة ٠
٣ ـ أن المعرفة العقلية ينبغى أن تتساند مع المعرفة الحسية أو المنقولة بالتواتر عن اخبار الآخرين ٠
٤ ـ أن المعرفة الواردة عن طريق الوحى ممكنة ٠
٥ ـ لم يدل أبو العلاء بدلوه فى مجال طبيعة المعرفة بالمعنى الذى تناولها به الفلاسفة ٠
٦ ـ يتضح من حديثه عن المعرفة احاطته بفلسفات غربيه ، وآراء الفرق الاسلامية المختلفة ٠

ثالثا : الطبيعة الانسانية :

البحث في الطبيعة الانسانية يشغل من فلسفة التربية موقعا متميزا ، ذلك أن الانسان هو قوام عملية التربية ، فهو وسيلتها وهو غايتها ، فمن المهم أن يكون واضحا لدى فلاسفة التربية ، وواضعي سياساتها ، ومخططي برامجها ، ما طبيعة الانسان الذي يتعاملون معه ؟ .. أمسير هو أم مخير ؟ أخير هو أم شرير ؟ أللوراثه ينتمي أم للبيئة ؟

وقد خاض أبو العلاء المعري في لزومياته في لجج هذه التساؤلات حتى ليكاد القارىء المتعجل يظن الديوان كله منصبا على هذه المسألة وحدها فقد بدأ أبو العلاء نظرته الى الانسان بالشك في أصله حين قال :

جائز أن يكون آدم هذا   قبله آدم على اثر آدم

ثم أشار الى أن كثيرا من المخلوقات تعبد الله وتسبح بحمده، وأيد وجود الملائكة :

خدم الله غيرنا وأرانا   أمل غي لربنا نتخادم

لست أنفي عن قدرة الله أشبا   ح ضياء بغير لحم ولا دم

ويمكن أن نستشف من تحليلنا لنصوص اللزوميات مجمل آراء أبي العلاء في الطبيعة الانسانية ونحصر ذلك في تناوله لقضايا :

أ - الشر أصل الانسان •

ب - رأيه فى الروح والجسم •

ج - رأيه فى الغرائز •

د - رأيه فى مسألة الجبر والاختيار •

وتدل معظم نصوص اللزوميات على أن أبا العلاء آمن فى معظم الوقت بأن الشر طبع متأصل فى الانسان ، والواقع أن فكرة تأصل الشر كطبع فى الانسان لا تطرد عند أبى العلاء ، فلدينا فى اللزوميات شواهد كثيرة تدل على أنه يرى الطبيعة البشرية شريرة بالفطرة وأن الخير طارىء عليها ، ثم نرى شواهد أخرى تدل على وعيه بحقيقة الطبيعة البشرية وأنها مزاج من الخير والشر ، وهذه الحقيقة تتفق مع الرؤية الاسلامية للطبيعة البشرية والتى عبر عنها القرآن بقوله تعالى " ونفس وماسوها ، فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها ، وخاب من دساها " • فكلا هذين المعنيين يرد فى اللزوميات ، ولعل ذلك يرجع الى أن أبا العلاء نظم اللزوميات خلال فترة اعتكافه التى امتدت الى نصف قرن كما تقدم ، ولم يقدم لنا قصائد اللزوميات مرتبة ترتيبا زمنيا ، ولكنه رتبها بحسب ترتيب الحروف الأبجدية •

فعلى رأيه فى أن الشر أصل فى الطبيعة البشرية جاء قوله السابق عن تساوى نفوس الناس فى الشر ، وجاء قوله :

حوار بنى الدنيا ضنى لى دائم   تمنيت لما شفنى الغب والربعا (١)

لقد فعلوا الخير القليل تكلفا   وجاءوا الذى جاءوه من شرهم طبعا

وقولـــه :

أمر الحازم نفسا بالتقـــى   ذاك أمر من لبيب لم يطـــع

وقولـــه :

حسب الفتى من ذنوب وصفه رجلا   بالخير ، وهو على ضد الذى يصف

وقولـــه :

والشر طبع وقد بثت غريزتـه   مقسومة بين أنواع وأجنـــاس

تصعد الجوهر الصافى وخلفنـا   فى الأرض كثرة أوساخ وأدنـــاس

وقولـــه :

جعلتك حارسى فبغيت كيـدى   وهمك حين أهجع ى احتراسى (٢)

١ـ الغب (بكسر الغين) : الحمى التى تأخذ المرء يوما وتتركه يوما ، والربع (بكسر الراء): الحمى التى تأخذ المرء يومـا وتتركه يومين ٠

٢ـ الاحتراس : السرقة٠ وهذا البيت يؤدى معنى المثل العامـى (حاميها حراميها)٠

وقولــــــه :

قد عمنا الـغش وأزرى بنــــــا	فى زمن أعوز فيــه الخصـــــوص
ان نصح السلطان فى أمـــــره	رأى ذوى النصح بعين الشصــوص
وكل من فوق الثرى خائـــــن	حتى عدول المصر مثل اللصــوص

فهو فى هذه الأبيات يعمم الشر ، ويرى أن أهل الخير قلــــــة ، وأن الغش هو الصفة السائدة فى الناس ، حتى هذا السلطان الذى ينصحه الناصحون ، ينظر الى ناصحيه بعين الشك والحذر ، ثم يطلق أبو العلاء حكما عاما بأن كل الناس خونة ، حتى قضاة البلاد والمشهود لهم بالعدل فيها انما هم كاللصوص . وهذه الرؤية التشاؤمية ترجع كما أشرنا آنفــــا الى واقع مجتمعه الذى عاش فيه .

وقولــــــه :

تصدق من أتاك بغير صـــــدق	وما أولى أمينك باختراص (١)
وليس أخوك الا ليث غـــــاب	يسير الى افتراسك بافتراص (٢)

وعلى رأيه الثانى فى أن الطبيعة البشرية مركبة من خير وشــر ، وأن الانسان بسلوكه مسلك الخير يكون خيرا ، وبنزوعه الى الشر يكــــون شريرا فهو مخير فى حياته ، على رأيه هذا جاءت أشعار كثيرة ربما كانـــت

---

١ ــ الاخـــــتراص : الكـذب .

٢ ــ الافــــتراص : شق الجلد بالحصى .

هى رأيه الحقيقى الذى انتهى اليه فى آخر حياته .

فمن ذلك قوله :

ثلاث مراتب : ملك رفيع — وانسان، وجيل غير انسك
فان فعل الفتى خيرا تعالى — الى قنس الملائك خير قنس (١)
وان خفضته همته تهاوى — الى جنس البهائم شر جنس

فهو هنا يردد معنى شائعا فى التراث الاسلامى وهو أن النفس البشرية اذا تخلصت من أدرانها ارتفعت الى درجات الملائكة ، واذا غلبها الشر هوت الى دركات البهائم .

ومن ذلك قوله :

مثل الفتى عند التغرب والنوى — مثل الشرارة ان تفارق نارها
ان صادفت أرضا أرتك خمودها — أو وافقت أكلا أرتك منارها

وحتى نفس السلطان فانها كنفوس الناس مركبة من الشر والخير فلابد للانسان اذا حجب السلطان أن يكون على حذر منه ، فان القرب منه كالقرب من البحر فيه من الرزق بقدر ما فيه من فرص الهلاك :

سلطانك النار، ان تعدل فنافعة — وان تجر ، فلها ضير واحراق
وقربه اللج ، ان أعطاك فائدة — فليس يؤمن اهلاك واغراق (٢)

١ــ القنس : الأصل .
٢ــ اللج : البحر .

ويعتنق أبو العلاء فكرة أن النفس هبطت الى الجسد من العالم العلوى ، فلا قيمة للجسد الا فى كونه وعاء للنفس التى هى الجوهر :

وجسمى شمعة والنفس نار   اذا حان الردى خمدت بأف

أما الجسم فهو عرض أو هو اناء لحفظ هذه النفس ، ولذا فانه لا خير فيه ، وانما الخير كل الخير فيما أودع فى ذلك الاناء :

كانائك الجسم الذى هو صورة   لك فى الحياة ، فحاذرى أن تخدعى
لافضل للقدح الذى استودعته   ضربا ، ولكن فضله للمودع

فالضرب (بفتح الضاد والراء وهو عسل النحل) ليس للقدح الذى يحتويه فضل فى ذاته ، ولكن فضله من فضل ما يحفظه من شهد . على أن هذا الرأى لأبى العلاء لا يسلم من رؤيته الخاصة فى نحو قوله :

ياروح كم تحملين الجسم لاهية   أبليته ، فاطرحيه ، طالما لبسا
ان كنت آثرت سكناه فمخطئة   فيما فعلت ، وكم من ضاحك عبسا
أو لا ، فجبر ، وان أشوى فجاهلة   كالماء لم يدر ما لاقاه أو حبسا
لولم تحليه لم يهتج لمعصية   وكان كالترب ما أخنى ومانبسا

فهو هنا يخاطب الروح ، ويتهمها بأنها حلت جسده زمنا طويلا وكانت مخطئة فان لم تكن مخطئة فى اختياره ، فان هذه جبرية قدرية ، فان لم تكن هذه أيضا ، فالروح جاهلة بأمرها كالماء لا يدرى شيئا عن الاناء الذى يصب فيه ، وأبو العلاء يميل الى تحميل الروح بأوزار الجسد ،

ويقول ان هذا الجسد لم يكن ليتطلع الى المعاصى لولا الروح الشريرة التى تلبسته . ولوكان ترك بلا روح لظل كالتراب لا يأتى المنكر ولا يتململ من كثرة وطء الأقدام اياه .

ويرى طه حسين (١) أن أبا العلاء ليس له رأى ثابت فى الروح وأنه ذهب فيها مذهبين مختلفين ، الأول مذهب أفلاطون وهو أن الروح جوهر هبط الى هذا الجسم ليشقى فيه ، ثم يعود الى العالم العلوى بعد الموت ، والثانى مذهب الماديين وهو أن الروح نار يخمدها الموت وفى ذلك يقول :

دولاتكم شمعات يستضاء بها … فبادروها الى أن تطفأ الشمع

والنفس تفنى بأنفاس مكررة … وساطع النار تخبى نوره اللمع

وقد وجدنا فى اللزوميات ما يؤيد ما ذهب اليه طه حسين فأبو العلاء يذكر فى أبيات رأى أفلاطون بشكل صريح حسين يقول :

والروح أرضية فى رأى طائفة … وعند قوم ترقى فى السموات

تمضى على هيئة الشخص الذى سكنت … فيه الى دار نعمى أو شقاوات

وكونها فى طريح الجسم أحوجها … الى ملابس عنتها وأقوات

كما أشار الى وجهة الماديين حين قال :

١ـ طه حسين ، تجديد ذكرى أبى العلاء ، مرجع سابق ، ص٢٦٦.

وجسمى شمعة والنفس نـــــار اذا حان الردى خمدت بنـــــاف

وأما من حيث الجبر والاختيار ، فعلى الرغم من أن أبا العلاء قد أشار الى كليهما ، فان الجبر وكون الانسان مسيرا لا مخيرا هو الأكثـر ظهورا فى اللزوميات . وقد أحصى طه حسين مائتى موضع ورد فيهـا ايمان أبى العلاء بالجبر والتسيير .

فمن ذلك قولـه :

حوتنا شرور لاصلاح لمثلهـا فان شذّ منا صالح فهو نـادر
وما فسدت أخلاقنا باختيارنـا ولكن بأمر سببته المقـادر

وقولـه الصريح :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياتى فهل لى بعد تخيير ؟

وقولـه :

والعقل زين ولكن فوقه قـدر فماله فى ابتغاء الرزق تأثـير

وقولـه :

وقيل تغوس الناس تطيع فعلهـا وقال رجال بل تبين جبرهـا

وقد شغلت قضية الجبر والاختيار الفرق الاسلامية قبل أبى العلاء حينا طويلا ، وأسهمت نظم الحكم فى بعض الأحوال فى انكاء نار الخـلاف

حول هذه القضية ، لأن سيادة روح الايمان بالجبر تعني ضمن ما تعني التسليم بأي شكل من أشكال الحكم ، فهي تكرس الدكتاتورية السياسية ومن هنا جاء اهتمام بعض الخلفاء بايقاظ فتنتها كلما نامت .

وأما ايمان أبي العلاء بالجبر فهو في رأينا راجع الى ظروفه الجسدية والنفسية واحساسه المتجدد بالألم النفسي والحرمان ، وقد قوى هذا اطلاع واسع على ثقافات مختلفة تعرضت لهذه القضية تفصيليا .

وقد أشار أبو العلاء الى غرائز الانسان ، واعتمد عليها في تفسير سلوكه ، فهو في هذا يذهب مذهب النظريات النفسية الحديثة كنظرية مكدوجل ، وقد أدى به علمه بالغرائز الى اجتناب الناس وايثار العزلة .

وهو يذكر رأي اليونانيين في الطبائع الأربع حين يقول :

جمعت جسوم من غرائز أربع وتفرقت من بعد مجتمعاتها

غير أنه يعني بالغرائز هنا الطبائع المعروفة : التراب والماء والنار والهواء وهو يرى أن أصل الانسان لؤم الطبع فيقول :

فلا تعذلينا ، كلنا ابن لئيمة وهل تعذب الأثمار ابن لؤم الفرس ؟

بل لقد تمنى لو أن الانسان لم يوجد :

ياليت آدم كان طلق أمهم أو كان حرمها عليه ظهار

وتحدث كثيرا عن النفاق الاجتـ ـى فقال :

طباع الورى فيها النفاق فأقصهم   دا ولا تصحب خليلا تنافقه
فما تحسن الأيام أن ترزق الفتى   كان ذا حظ ، خليلا يوافقه

وقـال :

أمسى النفاق دروعا يستجن بها   الأذى ، ويقوى سردها الحلف
انا ائتلفنا لأن الله ركبنا   ـن أربع ، ثم صرنا بعد نختلف

والى هذه الأفكار يعود رأيه فى ـدم الزواج وعدم الانجاب ٠

وخلاصة ما يمكن استنتاجه من آرائه فى ا طبيعة البشرية :

١ ـ ليس له رأى محدد فى الروح ٠ وأظهر رأييه موافقة الماديين ٠

٢ ـ يرى أن الفطرة الانسانية تتراوح بين الخير والشر ، وأظهر رأييه أنها شريرة ٠

٣ ـ يؤمن بان الانسان مسير ٠

٤ ـ يرى أن غرائز الانسان تميز سلوكه وتحدده ٠

٥ ـ وهو يصدر فى هذه الآراء جميعا عن " طبيعة " جسدية معلولة لا ينبغى اغفال علاقتها بآرائه الفلسفية ٠

أبو العلاء والقيم الخلقية :

المفهوم الاجتماعى ينصرف الى أنها الأحكام المعيارية التى توجه

السلوك الانسانى المكتسب ، أو تحسم اختيارات الانسان فى مواقف محددة ، فهى على ذلك تشمل المصالح والالتزامات ، والواجبات الأخلاقية وغيرها (١) .

وفى المفهوم التربوى تتطابق القيم التربوية والقيم الحياتية تقريبا ، فالتربية من بدايتها الى نهايتها تتضمن قيما ايجابية ، ولعل هذا هو ما دعا " ريد " الى أن يخصص فصلا مستقلا فى كتاب " الفلسفة والتربية " جعل عنوانه " القيم فى الحياة والتربية " (٢) حيث أشار الى أن التربية جزء من الحياة ، وبالتالى فان مناقشة القيم التربوية لا تنفصل عن القيم فى الحياة بما أن الحياة نفسها مجموعة من التطبيقات السلوكية التربوية .

ويرى ابراهيم الشافعى أن القيم هى مجموعة من المعايير والمقاييس المعنوية التى تنشأ بين الناس ، ويتفقون عليها على نحو ما ، ويتخذون منها موازين يزنون بها أعمالهم ، ويحكمون منها على تصرفاتهم المادية والمعنوية (٣) .

1- Pepper, Stephen C., The Sources of Value. (California : University of Colifernia Press, 1958) P : 7 .

2- Reid, L. L. A., op. cit. pp : 42-47.

٣ـ ابراهيم الشافعى ، مرجع سابق ، ص ٣٧٥ .

ومن هنا فان فلسفة الفرد الأخلاقية تقوم على ما يؤمن به من قيم من حيث ان القيم هي التي توجه سلوكه ، فالكلمات والأفعال هي الوسائط التي يعبر بها الفرد عن قيمه ، أو بمعنى آخر هي فلسفته الأخلاقية التي يستطيع من خلالها أن يقرر ماذا يفعل ؟ وكيف يفعل ؟ (١) .

ويختلف الفلاسفة والمربون كثيرا في تقسيم القيم من حيث ثباتها وتغيرها واطلاقها ونسبتها ، ويختلفون حول تصنيفها الى قيم فردية أو ذاتية ، وقيم اجتماعية أو عامة . وليس من المجدى هنا أن نتدخل فى عرض هذه الأختلافات والتفصيلات .

فأبو العلاء المعرى فى لزومياته كانت له فلسفته الخاصة فى القيم ، وفى سبيلنا لعرض هذه الفلسفة من خلال تحليل نصوص اللزوميات سنشير الى ما تفرد به أبو العلاء ، والى ما وقف فيه على آراء غيره من الفلاسفة السابقين عليه .

أما فى مجال القيم الاجتماعية ، فان أبا العلاء لم يكن سلبيا ، مع أنه كان من دعاة اعتزال المجتمع ، بل اسهم فى القاء الضوء على مفاسد

1- Lloyd Allen Cook & E. F. Cook., A Sociological Approach to Education. 3rd Ed. (Bomlay : Tota MacGrae pulishing Co. , Ltd.) p. 358.

عصره وهاجم الحكام وكان هجومه صريحا أحيانا ، فهو حين يرفض النفـــاق السياسي يعرض بأسمـــاء الخلفاء والملوك فيقول :

لم أرض رأى ولاة قوم لقبـــوا ملكا بمقتدر وآخر قاهـــــــرا

وهو يهاجم ملوك عصره لأنهم يظلمون الناس الذين نصبوهـــــم ملوكا لكى يدفعوا عنهم الظلم :

مل المقام فكم أعاشر أمـــــة أمرت بغير صلاحها أمراؤهـــــا
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤهـــــا

ويقـــــول :

يسوسون الأمور بغير عقــــل فينفذ أمرهم ويقال ساســـــــة
فأف من الحياة وأف منـــــى ومن زمن رئاسته خساســــــة

ان الملوك جميعا مستبدون ففى كل بلد حاكم كأنه شيطان :

ساس الأنام شياطين مسلطـــة فى كل مصر من الوالين شيطـــان

وكل قاض يقضى بين الناس جائر ظالم كأنه قاضى سدوم المشهـور بظلمه وجبروته :

وأى امرىء فى الناس ألفى قاضيا فلم يمض أحكاما كحكم ســـــدوم

ولم يقف فساد المجتمع عند أبى العلاء عند الحكام وحدهـــــم ،

فالوعاظ ورجال الدين ، ومظهرو التنسك ، كلهم لا يخلون من فاسد مدلس يغر الناس بمسبحة يحركها فى يده بينما هو يسبح فى المعاصى :

وليس عندهم دين ولا نسك   فلا تغرك أيد تحمل السبحا
وكم شيوخ غدوا بيضا مفارقهم   يسبحون وباتوا فى الخنى سبحا

فيجب على من يتصدى للتربية أن يكون قدوة حسنة ، وأسوة صالحة فلا يأتى من الأمر ما يدعو الى اجتنابه لأنه بذلك يرتكب معصيتين هما الكذب والمعصية نفسها :

رويدك قد غررت وأنت حر   بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء ظهرا   ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء   وفى لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى   فمن جهتين لا جهة أساء

كما هاجم المنجمين الذين يعبثون بالناس ويدعون معرفة الغيب وشبههم بالعمى الذين يعرفون الأشياء باللمس ، وهى صورة عجيبة فكلاها معرض للخطأ :

كأن منجم الأقوام أعمى   لديه الكتب يقرؤها بلمس

ويتحدث أبو العلاء عن قيمة " الوراثة " وكيف أن الفرد يرث من أبويه طباعهما ، فعليهما أن يحسنا تربيته بأن يكونا من أهل الصلاح :

اذا ما الأصل ألفى غير زاك   فما تزكو مدى الدهر الفروع

ويعبر عن نزعته التشاؤمية فى هذا المجال فيقول :

فلا تعذلينا ، كلنا ابن لئيمة وهل تعذب الأثمار ابن لؤم الفرس ؟

ومع ذلك فانه لم يغفل أثر البيئة فى السلوك فالانسان يتأثر بالوسط الذى يوجد فيه :

مثل الفتى عند التغرب والنوى مثل الشرارة ان تفارق نارها
ان صادفت أرضا أرتك خمودها أو وافقت أكلا أرتك منارها

كما تحدث عن أهمية " الخبرة " فى السلوك ، وهو يشير الى الخبرة المربية اشارات واضحة فيقول :

والنار ان قربت كلك مرة منها ثنت عن قبضها لذعاتها

وفى قوله :

ومن لايجد حفظ التجارب لايزل على السن غمرا ، ان طول المدى ينسى

ويتحدث عن قيمة تربوية هامة وهى " بذل الجهد " فى التربية فيقول :

ونكر بالتقى نفرًا غفولا فلولا السقى ما نمت الزروع

ويقول :

والفتى ساع لأقصى أمل لم يزل يطلبه حتى بلغ

ويتحدث عن قية " الفروق الفردية " فهو يرى أن النـــــاس مختلفون فى طباعهم كما هم مختلفون فى امكاناتهم ، ولا سبيل ازاء تلــك الفوارق الا التسليم بها فهذا انسان نحيف ، وهذا انسان سمين فــــلا ينفعه الطب ان تطبب ، ولا يغنى عنه شيئا أنه فيلسوف يتعلل بالحكمة بعد أن أعله المرض :

ألم تر أن جسمي فيه فضـــــل وجسمك قد أضر به الشسوف (١)

تطبيب جاهدا ، وتعل دونـــى فما أغناك أنك فيلســـوف ؟

واختلاف الناس دليل على اختلاف الشرائع والأمثال :

وليس يوافق ابــــن أب وأم أباه ، فكيف تتفق الشـروع ؟

فمن الناس فرسان يجدون لذتهم فى ضرب السيوف ، وخـــوض الصفوف ، ومن الناس من يأنسون بضرب الدفوف فهل الكف التى تجـــد متعتها فى حمل السيف كالكف التى تجد متعتها فى ضرب الدف ؟

وليس الخمس ضاربة بســيف كمثل الخمس ضاربة بـــدفّ

ولا يجمع بين البشر المختلفين فى رأى أبى العلاء الا ذلـــك الأصل الذى هو الطبائع الأربع : النار والماء والهواء والتراب ، أما فيما عدا ذلك فان الناس مختلفون ، ينافق بعضهم بعضا ، ويتخذ بعضهم

١ـ الشســوف : الضمـــور ..

من النفاق دروعا يتقون بها غضب الآخرين وآذاهم ، وهم يلجأون الى الحلف الكاذب يقوون به نفاقهم :

امسى النفاق دروعا يستجن بها   من الأذى ويقوى سردها الحلف

انا ائتلفنا لأن الله ركبنا   من أربع ثم صرنا بعد نختلف

وأشار المعرى الى ما كان فى عصره من تزمت فكرى ، فهو لا يستطيع أن يجهر بآرائه حتى لا يرمى بالكفر والزندقة ، ولذلك فانه يتحايل على ابداء رأيه حينا ، ويلجأ الى الرمز حينا ، ويستعين بالتشكيك حينا اخر فى قوله :

أهوى الحياة وحسبى من مصائبها   أنى أعيش بتمويه وتدليس

ما كتم حديثك لا يشعر به أحد   من رهط جبريل أو من رهط ابليس

وفى قوله :

لحا الله قوما اذا جئتهم   بصدق الأحاديث قالوا : كفر

ونجده يسخر من الأساطير التى يروجها القصاصون والمؤرخون عن الأمم السابقة ، ويتهمهم بأنهم انما يصطنعون ذلك لأكل العيش ، والغريب أنه يستخدم هذا التعبير نفسه :

كذب لا يزال يطعم خبزا   نص عن آدم وعن قابيل

ثم يشير الى الخلافات المذهبية وما تتركه من آثار فى المجتمع :

أجاز الشافعى فعـال شــىء وقال أبو حنيفة لا يجــوز
فضل الشيب والشبان منـا وما اهتدت الفتاة ولا العجـوز

بل انه يشير الى أختلاف الأديان ، ويتساءل عن تقسيم أيـام الأسبوع لكل ديانة يوم :

لنا جمعة، والسبت يدعى لامة أطافت بموس، والنصارى لها الأحد
فهل لبواقى السبعة الزهر معشر يجلونها ممن تنسك أو مجـد؟

ويرى طه حسين (ص ٢٨٤) أن أبا العلاء اشتراكى النزعـة ، ويستدل على ذلك بأنه كره انقسام الناس الى طبقتى أغنياء وفقراء :

ويا بلادا مش عليهـا أولو افتقـار وأغنيـاء
اذا قضى الله بالمخـازى فكل من فيـك أشقيـاء

وتمنى أن يشترك الناس فى النعمة كما اشتركوا فى البؤس :

كيف لا يشرك المضيفين فى النعمة قـوم عليهـم النعمـاء

وأثنى على تشريع الزكاة :

وقد رفق الذى أوصـى أناسـا بعشر فى الزكاة ونصف عشـر

وأحب المساواة ودعا اليها :

لا يفخرن الهاشمـى على امرىء من آل بربـر

فالحـــق يحلف ما عـــلى عنـــده الا كقنبـــر

ومن القيم الخلقية التى دعا اليها أبو العلاء كذلك حرق الجسم بعد موته واتفق فيها معه هربرت سبنسر الذى أوصى بحرق جسمه بعـــد موته وهى تقيدة هندية :

فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم   وذاك أروح من طول التباريـــح

ان حرقوه فما يخشون من ضبـــع   تسرى اليه ولا خفى وتطريـــح

كما دعا أبو العلاء الى رحمة الحيوان ، وقد أشرنا آنفا الى أنـــه كان لا يأكل اللحم من باب رحمة الحيوان فنهى عن أكل السمك واللحـــم وصيد الطيور :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى   ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ولا تفجعن الطير وهى غوافـــل   بما وضعت فالظلم شر القبائح

حتى لقد نهى عن أكل عسل النحل ورأى فيه ا: تصابا لحقوقها :

ودع ضرب النحل الذى بكرت لـه   كواسب من أزهار نبت فوائـــح

فما احرزته كى يكون لغيرهـــا   ولا جمعته للندى والمنائـــح

ومع أن أبا العلاء اختار عدم الزواج ، وكره الانجاب ، فانـــه دعا الى احسان تربية الأبناء ، وهو بهذا لم يتناقض مع نفسه ، لأنـــه مادام يهاجم مظاهر الفساد فى المجتمع ، فانه من الطبيعى أن يهتـــم بالتربية لأبن الابن يقتدى بأبيه ، والتنشئة الاجتماعية السليمة هـــى

التى تعصمه من الفساد ، وتقيه الانحراف :

وينشأ ناشىء الفتيان منـــا   على ما كان عوده أبـــوه
وما دان الفتى بحجا ولكـــن   يعلمه التدين أقربـــوه (١)
وطفل الفـــارس لــــه ولاة   بافعال التحمس دربـــوه

ولا مانع عند أبى العلاء من استخدام القسوة فى تربية الأبناء :

فأضرب وليدك واد لله على رشد   ولا تقل هو طفل غير محتـــلم
ورب شق برأس جــر منفعـــة   وقس على نفع شق الرأس فى القلم

وهو يدعو الى تكريم الأطفال والعناية بهم وتركهم يلعبـــون اذا رغبوا فى اللعب ، وحفظ مسامعهم عن أن تسمع المنكر من القول :

لا تزدرن صغارا فى ملاعبهـــم   فجائز أن يروا سادات أقـــوام
وأكرموا الطفل عن نكر يقال لــه   فان يعش يدع كهلا بعد أعـــوام

ويمكن ايجاز ما تقدم فيما يلى :

• ان أبا العلاء قد نادى بقيم انسانية عامة كالعدل والمساواة والصدق .

١ــ الحجى : العقل ، يعنى أن الانسان لا يهتدى الى الديـــن بفطرته بل يكتسبه اكتسابا ، وفى هذا اشارة الى الحديـــث المشهور " كل انسان يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانـــه أو يمجسانـــه " .

- وانه فى قيمه الاجتماعية كان معبرا عن واقع مجتمعه .
- وفى القيم الذاتية فانه كان يصدر عن فلسفة خاصة آمن بها .
- اعترف أبو العلاء بأثر الوراثة والبيئة فى سلوك الفرد وتكوين قيمه الخاصة .
- اهتم أبو العلاء بتربية الأبناء تربية يرضى عنها المجتمع .
- اعترف أبو العلاء بأهمية الخبرة المربية فى تعديل السلوك .

أبو العلاء وتعليم المرأة :

يتلخص رأى أبى العلاء فى المرأة فى أنها شر ، ولكنه شر لابد منه فهو على مستوى النظرية قدم لنا فى اللزوميات الآراء المتعددة التى تؤكد هذا ، وعلى مستوى التطبيق عاش بلا زوجة ولا ولد . غير أن آراءه المتعددة لا تخلو من تناقض :

فهو ينصح الانسان بأن يزوج ابنته ولا يزوج ابنه :

واطلب لبنتك زوجا كى يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج

وذلك لأن الزواج عصمة للمرأة من الفتنة ، وفى ذلك وقاية للمجتمع من الفساد الذى يترتب على خروج النساء ، وعدم احصائهن . أما الرجال فهم قادرون على الصبر على عدم الزواج ، والرهبان أصدق مثال على ذلك لولا أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل :

ويعجبنى عيش الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

وهو يدعو الى التفرد واعتزال النسل لأن الانجاب يعرض الذرية لآلام الحياة ، وفى عدم الانجاب وقاية من ذلك :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحمد

وقوله :

الحكم لله ، فالبث مفردا أبدا ولا تكن بصنوف الناس مختلطا
ولست أدرى سوى أنى أرى رجلا يرب نسلا لرب الدهر قد غلطا

وهو يرى ان طبيعة المرأة فاسدة ، ويؤكد أن النساء ناقصات عقل ، ويستدل على ذلك بقاعدة نحوية وهى جمع غير العاقل بالألف والتاء وهما علامة جمع التأنيث فنحن نقول فى جمع مجلة وكراسة وسماء : مجلات وكراسات وسماوات ، كما تقول فى جمع بنت : بنات ، فهو يستنتج من ذلك أن انعدام العقل فى الجمادات هو الذى جعلنا نختار لها من بين صيغ الجموع التى تعرفها لغة العرب ، صيغة جمع المؤنث ، وهو استنتاج عجيب ولا دليل عليه . يظهر فى قوله :

انا ، معاشر هذا الحلق ، فى سفه حتى كانا على الاخلاق نختلف
ان الرجال اذا لم يحمها رشد مثل النساء عراها الخلف والخلف (١)

---

١ ـ الخلف (بضم الخاء وسكون اللام) عدم الوفاء بالوعد ، والخلف (بضم الخاء واللام) جمع مفرده أخلف أى أحمق ، يريد أن يقول أن الرجال اذا لم يرعهم العقل الرشيد كانوا كالنساء طبعن الحمق واخلاف الوعد .

ألا ترى جمع مالا عقل يسنــــده جمع المؤنث فيه التاء والألف

وقد صرح أكثر من مرة بأنه يوافق على واد البنات ، أو لعلـــــه يقصد أن الموت خير للفتاة من الحياة • فمن ذلك قوله :

ان الأوانس أن تزور قبورهـــا خير لها من أن يقال عرائـــس

وهو ينصح الزوجات اللاتى لهم بنات ، أن يتشددون فى تربيـة بناتهن ولا يتركنهن يخرجن لشهود حفلات الزواج وهن متزينات بالحجول (الخلاخيل) والأقراط :

نصحتك يا أم البنات فما ذرى وساوس ولاج الأساود ، فنـــاس
ولا تلبسى الحجلين بنتك والبرى لتشهد عرسا ،واشغلنها بعرناس (١)

فعلى الأم أن يشغل ابنتها بمغزل تتلهى به ، وألا تستمع لمن يوسوس لها بخروجها •

وأبو العلاء اذ يرفض المرأة ، ويرى الموت خيرا لها من الحياة، فانما يرفضها فى جميع حالاتها بدرجات مختلفة ، فهى تعبث بألبـــاب الرجال ومن صفاتها ألا تنصف أحدا حتى من عشاقها :

٢ـ البرى (بضم الباء وفتح الراء) جمع برة (بضم الباء وفتـــح الراء المشددة) ومعناها القرط أو " الحلق " ، العرنـــاس : يد المغزل •

نعوذ بالله من غـــــوان يكن باللـــب معصفـــات
ومن صفات النساء قدمـــا أن السن فى الود منصفـــات

ولذلك نجده ينصح الرجل ألا يأمن للمرأة وألا يسايرها فـــى غوايتها لأن تبعات ذلك كثيرة :

لا تتبعن الغانيات مما شيـــا ان الغوانى جمة تبعاتهـــا

وهو يرى أمر المرأة كله شر ، فليست فتنة النساء فى دخـــول الحمامات (وهى أماكن عامة كانت تنتشر فى ذلك الوقت للنظافـــة) فحسب ، بل ان مجرد تفريط الرجل وسماحه للمرأة بالخروج متعطـــرة متزينة هو شر كبير حتى لو كان خروجها الى المسجد ، فمن ذا الـــذى يأمن الامام الذي ستصلى خلفه ؟ يقول أبو العلاء مرتجزا :

شر على المرأة من حمامهـــا ارسالك الفاضل من زمامهـــا
ومشيها تضرب فى أكمامهـــا يفوح ريا الطيب من أمامهـــا
زائرة المسجد فى المامهـــا تأتم والخيبة في ائتمامهـــا
بأحدل ما عف عن كمامهـــا أعاذها الخالق من امامهـــا

وفى اللزوميات قصيدة مطولة خاصة بالنساء عرض فيها أبو العلاء آراءه بالتفصيل والوضوح مطلعها :

ترنّم فى نهارك مستعينـــا بذكر الله فى المترنمـــات

فهو يصف النساء فى هذه القصيدة بأنهن يتظلمن وهن ظالمات ،

فلا ينبغي على الرجل أن يرد عليهن السلام اذا أشرن اليه بالسلام لأنهن طرق الى الغي والفتنة ، لا يكتفين بالوسامة الطبيعية ، بل يلتمسن الوسامة بالخضاب (= الحناء) :

ولا ترجع بايماء سلاما ... على غيد أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم ... وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غي ... لقينك بالأساور معلمات
وسام ما اقتنعن بحسن أصل ... فجئنك بالخضاب موسمات

وماذا سيستفيد الانسان من صحبة النساء ؟ اذا ولدن له أولادا فقد يعاني من عقوقهم وأذاهم وما يجرونه اليه من مصائب ، واذا ولدن له اناثا قسيمات الوجوه جميلات ، فما أشد بؤسه بهذه الوجوه الحسان التي تريد حليا وتريد زواجا ، وهن لا يدفعن عن الرجال في الحرب ولا يرددن عنه غارة ، ومع ذلك فانه لا يسلم من لومهن وتأنيبهن :

صحبنك فاستفدت بهن ولدا ... أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء ... بذلك عن نوائب مسقدات
فمن شكل يهاب ومن عقوق ... وأرزاء يجئن مصممات
وان تعط الاناث فأي بؤس ... تبين في وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حليا ... ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم ضرب ... ولا في غارة متغشمات

فأفضل شيء للنساء دفنهن ، لأنهن اذا كبرن وتزوجن ثم

فقدن أزواجهن فيصرن عبئا على آبائهن مرة أخرى ، كما أنهن قد يلدن فى المستقبل من يعادى جده أو أخواله ، وقد يجلبن العار اذا مسهن ظلم أو هضمت حقوقهن :

ودفن والحوادث فاجعلات لاحداهن احدى المرمات

وقد يفقدن أزواجا كراما فيا للنسوة المتأيمات

يلدن اعاديا ويكن عارا اذا أمسين فى المتهضمات

وهو ينهى عن تعليم المرأة صراحة ، ويدعو الى تعليمهن حرفة الغزل لأن فى ذلك أمانا لهن :

ولا تحمد حسانك ان توافت بأيد للسطور مقومات

فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع (١) مقلمات

لأن النساء اذا تعلمن فسيستعملن ما تعلمنه فى الشر :

سهام ان عرفن كتاب لسن رجعن بما يسوء مسممات

ويتركن الرشيد بغير لب أتين لهديه متعلمات

وان جئن المنجم سائلات فلسن عن الضلال بمنجمات (٢)

ليأخذن التلاوة من عجوز من اللائى فغرن مهتمات

يسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحى متأثمات

---

١ ـ اليراع : القلم .

٢ ـ منجمات : مقلعات .

فما عيب على الفتيات لحن اذا قلن المراد مترجمات .

واذا كان لابد من تعليمهن فيجب آن يختار الرجل لتعليم بناته معلما عجوزا أكل عليه الدهر وشرب ، يعلمهن آيات القرآن ، بحيث يكون قد بلغ من الكبر مبلغا يجعله مرتعش اليدين ، أشيب الشعر :

ولا يدينن من رجل عجوز يلقنهن ايا محكمات
سوى من كان مرتعشا يداه ولمته من المتثغمات

ويتحدث أبو العلاء عن ظواهر اجتماعية بعينها ، كالشعوزة، فينصح كل أب آن يحتاط في معاملة بناته ، وأن يسعى في تربيتهن سعى المشفق عليهن ، ومن أساليب التربية التي يدعو اليها الأباء، ألا يتركوا بناتهن يخرجن لزيارة اترابهن ممن تزوجن وأصبحن عرائس، فيخرجن متخذات زينتهن لباسا كريش الطاووس ، وعطورا يجعلنها في وجوهن :

وان طاوعن أمرك فانه غيدا يزرن عراشا متبممات
أخذن كريش طاووس لباسا ومسكا بالضحى متلغمات (١)

ومن أساليب تربية الرجل لبناته ألا يتركهن يذهبن الى عجائز النساء المشعوذات اللائي يزعمن أنهن قادرات بسحرهن على جلب الأزواج وتليين قلوب العشاق وعطفها حتى يعودا الى معسوقاتهم :

١ـ تلغم بالطيب : أى جعله حول فمه .

وأبعدن عن ربات مكر سواحر يغتدين معزمات
يقلن : نهيج الغياب حتى يجيئوا بالركاب مزممات
ونعطف هاجر الخلان كيما يزول عن السجايا المسئمات
فلا يدخلن دارك باختيار فقد ألغيتهن مذممات

كما أن أبا العلاء يذم زواج المصلحة ، فلا ينبغي أن تتزوج فتاة مراهقة من شيخ عجوز ، لاسيما اذا كان فقيرا ، لأن الفقر مع تقدم السن بلاء مبين ، واذا أراد ذلك العجوز أن يتزوج فعليه أن يبحث عن امرأة عانس تقلبت مر الدهر وانتظرت الزواج عاما بعد عام فهي شمطاء واهنة تتسلى بغزل الصوف مع مرور السنين :

ولا يتأهلن رجل مقل بمعصرة من المتنعمات (١)
فان الفقر عيب ان أضيفت اليه السن جاء بمعظمات
ولكن عرس ذلك بنت دهر تجنبت الوجوه محممات
عن اللائي اذا لم يجد عام تفوقن الحوادث معدمات
من الشمط اغتزلن بكل عود وأفنين السنين مجرمات

ثم ان الرجل اذا تزوج فلا ينبغي له أن يعدد زوجاته بل لابد أن يكتفي بواحدة :

وواحدة كفتك فلا تجاوز الى أخرى تجيء بمؤلمات

١ـ معصرة : شابة مراهقة ..

وهو سنهى عن ظلم الزوجة لأن النساء كالزجاج ، ولعله اقتبست هذا المعنى من القول المأثور (رفقا بالقوارير) أو القول الآخر (استوصوا بالبنساء خيرا فانهن خلقن من ضلع أعوج ، اذا جئت تقومه كسرته) :

وان أرغمت صاحبة بضر فأجدر أن تروع بمعرمات(١)
زجاج ان رفقت به ، والا رأيت ضروره متقصمات

ونجده في غير هذه القصيدة يلح على تعليم المرأة ، لان المرأة لا ينبغى أن تطلب من العلم الا ما يحفظ عليها دينها ، ويكفي في ذلك أن يحفظ سورة الاخلاص وسورة افاتحة ، وتستغنى بهما في صلاتها عن السور الطوال :

علموهن الغزل والنسج والردن وخلوا كتابة وقراءة
فصلاة الفتاة بالحمد والاخلاص تجزى عن يونس وبراءة

وقد بلغ من تشدد أبى العلاء على المرأة بعد أن نهانا عن الصلاة في جماعة ، أن نهى عن حج المرأة ، وهو بهذا يخالف قواعد الدين ولا نستطيع ان نلتمس له في ذلك عذرا .

وخلاصة ما سبق :

• أن أبا العلاء ساء ظنه بالمرأة الى درجة من النادر أن بلغها شاعر غيره .

١ـ أى اذا ظلمت زوجتك فما أجدرك أن تبوء بالشوائد .

- أنه يرى تعليم المرأة في ظروف مشددة من رجل عجوز .
- ولا ينبغي أن تزيد في تعليمها عما تتطلبه أمور العبادة .
- وألا تخرج المرأة متزينة متبرجة متعطرة .
- وأن يبتعد الرجال بأنفسهم وبأسرهم عن الفتنة .
- وأن الزواج شر ، فان كان ولابد فواحدة تكفي .
- وعلى الرجال أن يسارعوا بتزويج بناتهم ، وألا يسارعوا في تزويج أولادهم .
- ان أبا العلاء قد تناقض مع نفسه في كثير من آرائه فيما يخص المرأة .
- أن بعض آراء أبي العلاء في المرأة تخالف أصول الدين حيث تطرف في مراعاة الحذر حتى دعا الى واد البنات واستحسن ذلك ، كما حذر من شهود المرأة الجماعات .

ب ـ معالم فلسفة التربية عند أبي العلاء :

هل نستطيع في نهاية هذا البحث القول بأن أبا العلاء فيلسوف تربية ؟ لعل ذلك ممكن ، فان أبا العلاء برغم ظروفه الخاصة قد تميز بأنه أسهم بلزومياته في ترك تراث فني ليس له مثيل في تراثنا الشعري العربي لا من حيث الشكل ، ولا من حيث المضمون .

ويمكن ايجاز معالم فلسفته التربوية فيما يلي :

١ ـ تميز أبو العلاء بشخصية فلسفية مستقلة ، فقد ترددت في ديوان اللزوميات أصداء فلسفات كثيرة يونانية وفارسية وهندية ، وترددت

كذلك اصداء الخلافات المذهبية التى أذكاها انتشار الفرق الاسلامية المتصارعة ، وكان أبو العلاء على مدى الخمسين عاما التى اعتكفها ، والتى كتب خلالها اللزوميات ، يدرس تلك الفلسفات، وتلك الخلافات ، ولم يترك آثار تدل على تميزه لطائفة من الطوائف ، أوفلسفة من الفلسفات ، فالتفرد سمة سائدة فى اثاره بعامة ، وهى لزومياته بخاصة .

٢ — يرى أبو العلاء أن الزواج شر ، وأن الرجل اذا اضطر اليه فان عليه واجبات كثيرة منها :

١/٢ — ألا يعدد الزوجات ، ولا يظلم زوجته .

٢/٢ — أن يرى أولاده تربية صالحة .

٣/٢ — أن يتشدد فى تربية بناته .

٤/٢ — استخدام العقاب كوسيلة للتربية عند الضرورة .

٥/٢ — المسارعة بتزويج البنات .

٦/٢ — التشدد فى الموافقة على خروج المرأة .

٣ — فى مجال الوجود الفيزيقى والميتافيزيقى برزت لأبى العلاء الآراء التالية :

١/٣ — الايمان بالله والملائكة والرسل واليوم الآخر .

٢/٣ — الخير والشر والحق والباطل من ضرورات الوجود .

٣/٣ — ينبغى الزهد فى الحياة الدنيا لأنها وجود بين عدمين .

٤/٣ — لابد من أخذ الخبرة والعظة من مرور الأيام .

٤ ـ في مجال الطبيعة الانسانية تتلخص آراء أبي العلاء في الأمـــور التالية :

١/٤ ـ ليس له رأى محدد فى الروح ، وأظهر رأييه موافقـــة الماديين القائلين بأن الروح نار ، والجسد الى الفناء .

٢/٤ ـ على الرغم من تردده بين كون الطبيعة البشرية خيـرة أو شريرة فان غالبية ارائه فى اللزوميات توحى بأنـــه يميل الى كونها شريرة .

٣/٤ ـ يؤمن أبو العلاء بالجبر أى أن الانسان مسير .

٤/٤ ـ يؤمن بوجود الطبائع (الغرائز) ويؤكد أثرها فى السلوك الانسانى .

٥ ـ فى مجال المعرفة يرى أبو العلاء :

١/٥ ـ أن المعرفة مكتسبة وليست فطرية .

٢/٥ ـ أن العقل هو المصدر الأول للمعرفة .

٣/٥ ـ أن العقل هو محك المعرفة الاتية من مصادر أخرى .

٤/٥ ـ لم ينكر أبو العلاء المعرفة عن طريق الوحى .

٥/٥ ـ لم يشر أبو العلاء الى مسائل أخرى فى نظرية المعرفـة مثل طبيعة المعرفة ، وامكانها . وقد أشار اشـــارات طفيفة الى قلة امكان المعرفة فى مجال الميتافيزيقا .

٦ ـ في مجال القيم تتلخص آراء أبى العلاء فى :

١/٦ ـ أنه نادى بقيم انسانية عامة كالعدل والمساواة ،والصدق ، ورحمة الحيوان ٠

٢/٦ ـ أنه فى مجال القيم الاجتماعية كان معبرا بصدق عن واقع مجتمعه ٠

٣/٦ ـ فى مجال القيم الذاتية عبر عن فلسفته الخاصة التى آمن بها ٠

٤/٦ ـ اعترف بأهمية الوراثة والبيئة فى تكوين قيم الفرد ٠

٥/٦ ـ نادى بتربية الأبناء على قيم المجتمع ٠

٦/٦ ـ اعترف بأهمية الخبرة المربية فى تعديل السلوك ٠

نتائج البحث وتوصياتـه

١ ـ أبو العلاء فيلسوف عربى اصطنع لنفسه فلسفة خاصة ، واستطاع فى لزومياته أن يقدم فلسفة تربوية يمكن الافادة منها من خلال :

أ ـ اجراء دراسات مقارنة بين واقع فلسفتنا التربوية الحاليـة وفلسفة أبى العلاء التربوية .

ب ـ اعادة النظر فى فلسفتنا التربوية الحالية ومعرفة أصولهـا الفكرية .

جـ ـ ضرورة الايمان بأن الفكر العربى لا يخلو من تراث تربـوى صالح لعصور كثيرة ، ليس بدافع التعصب . بل بدافـع موضوعى .

د ـ تقديم تراث أبى العلاء الشعرى الى الأجيال الحديثة عبـر المناهج التعليمية .

هـ ـ توجيه الدراسات التربوية لاجراء موازنات بين فلاسفـة العرب القدامى ، وفلاسفة الغرب .

٢ ـ ليس كل ما قدمه أبو العلاء من فلسفة تربوية فى لزومياته صالحـا للتطبيق :

أ ـ فايمانه العميق بأن التناسل شر وبأن الأبناء مصدر شقـاء لآبائهم ، يمكن الافادة به فى مجال التثقيف الأسـرى

ولكنه لا يمثل حقيقة علمية ، بل هو فلسفة خاصة يمكن أن يوجه اليها عديد من النقد •

ب ـ ايمانه بأن الانسان مسير لا يمكن الافادة منه تربويا لأن أهداف التربية يجب أن تقوم على اتاحة الحرية للمتعلمين والمعلمين فى مناقشة جوانب التعليم وأنشطته المختلفة • وقيام فلسفة تربوية على أن الانسان مسير لا مخير ، لا يتيح الفرصة ذلك ، ويعرقل مسيرة التعليم •

جـ ـ ميله الى أن الانسان شرير بطبعه لا يمكن الافادة منه تربويا لأنه ينضوى على تقسيم ثنائى تقليدى للطبيعة البشرية ، أصبح مرفوضا من وجهة نظر التربية الحديثة التى تنظر الى الطبيعة البشرية نظرة تكاملية كما أنه يعارض بهذا الرؤية الاسلامية للانسان وهى تكاملية •

٣ ـ من نتائج هذا البحث أن الشعر ليس بالضرورة خاليا من المضامين الفكرية ، وعلى هذا فان من واجب الباحثين أن يلتفتوا الى التراث الشعرى العربى بعد أن أهملوه طويلا تحت ضغط مقولات مجازفة ترى أن الشعر فن ، والفن الى الخيال أقرب منه الى الواقع ، فقد رأينا فى اللزوميات :

أ ـ أن أبا العلاء استوعب ظروف مجتمعه وعبر عنها ٠

ب ـ أن صياغة القضايا الفلسفية شعرا ممكنـــــــة ٠

جـ ـ أن الشعر عبر تعبيرا صادق عن نفسية صاحبه وعرض لنـــا
آرائه بيسر واحاطـة ٠

مصادر البحث ومراجعه

أولا : مصادر البحث :

١ ـ ابن خلكان (احمد بن محمد بن ابراهيم) . وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق احسان عباس . المجد الأول ، بيروت : دار صادر ، د . ت .

٢ ـ البطليوسى (أبو محمد عبد الله بن السيد) . شرح المختار من لزوميات أبي العلاء ، تحقيق حامد عبد المجيد ، القسم الأول ، القاهرة : مركز تحقيق التراث ، ١٩٧٠ .

٣ ـ الذهبى (شمس الدين) . كتاب دول الاسلام ، الجزء الأول ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .

٤ ـ الزركلى (خير الدين) ، الأعلام . الجزء الأول ، الطبعة السابعة ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٦ .

٥ ـ المعرى (أبو العلاء) ، لزوم ما لا يلزم ، الجزآن الأول والثانى، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦ .

ثانيا : المراجع :

أ ـ كتب باللغة العربية :

٦ ـ بدوى (د . عبد الرحمن) . مدخل جديد الى الفلسفة ، الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٩ .

٧ ـ الجوهـــرى (د٠ محمد واخر) طرق البحث الاجتماعى ٠ ط ٣ ،
القاهرة : دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٨٢ ٠

٨ ـ حســـان (د٠ حسان محمد واخرون) دراسات فى فلسفـــة التربية ، القاهرة : بدون ناشر ، ١٩٨٦ ٠

٩ ـ حســين (د٠ طه) ، تجديد ذكرى أبى العلاء ٠ ط ٨ ،
القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٦ ٠

١٠ ـ ــــــــــــ ، مع أبى العلاء فى سجنه ٠ ط ١٣ ،
القاهرة : دار المعارف ٠ د٠ ت ٠

١١ ـ زقـــزوق (د٠ محمود حمدى) ، تمهيد للفلسفة ٠ القاهـــرة :
مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٣ ٠

١٢ ـ الشافعـــى (د٠ ابراهيـــم) ، الاشتراكية العربية كفلسفـــة للتربية ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧١ ٠

١٣ ـ الشيبـــانى (د٠ عمر محمد التونى) ، مناهج البحث الاجتماعى ،
بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧١ ٠

١٤ ـ ضيـــف (د٠ شوقـــى) ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربـى ،
ط ١٠ ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٨ ٠

١٥ ـ عبد الحميد (د٠ حســـن) ، مدخل الى الفلسفة ، القاهـــرة :
مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٧٧ ٠

١٦ ـ عبد الرحمن (د٠ عائشة) ، أبو العلاء المعرى ، أعلام العرب ٣٨ ، القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، ١٩٦٥ ٠

١٧ ـ على (د٠ سعيد اسماعيل) ، دراسات فى التربية الاسلامية ، القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٢ ٠

١٨ ـ فان دالين (ديوبولد ٠ب) ، مناهج البحث فى التربية وعلم النفس ، ترجمة محمد نبيل نوفل واخرين ٠ القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ ٠

١٩ ـ نجار (رمزى) ، الفلسفة العربية عبر التاريخ ، ط ٢ ، بيروت : دار الافاق الجديدة ٠ ١٩٧٩ ٠

٢٠ ـ هويدى (د٠ يحيى) ، مقدمة فى الفلسفة العامة ، ط ٥ ، القاهرة : مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٨ ٠

ب ـ دوريات :

٢١ ـ زيدان (د٠ عبد القادر) ، التشاؤم فى رؤية أبى العلاء ، مجلة فصول ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، يناير / مارس ١٩٨٤ ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

جـ كتب باللغة الانجليزية :

22- Armstrong. A. H., An Introduction to Ancient philosophy. London : Methuen co., 1972.

23- Cook. L. Allen & Cook E. F., A Sociological Approach to Education . 3rd Ed. Bombay : Tata Mac Grow Hill publishing Com., Ltd.1970.

24- Hirst. P. H., & Peters. R. S. the logic of Education. London :Routledge & Kegan Daul, 1970.

25- Pepper. Stephen C., The Sources of Value Colifornia : University of California press, 1958.

26- Reid. L. A., Philosophy and Education London : Heinmman Educational Books Ltd., 1973.

" تم بحمد الله "

